محمود عبد الشكور

حبيبة

كما حكاها نديم

رواية

محمود عبد الشكور

حبيبة

كما حكاها نديم

رواية

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢١

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢١

© محمود عبد الشكور ٢٠٢١

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

محمود عبد الشكور.

حبيبة، كما حكاها نديم: رواية / محمود عبد الشكور - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

١٨٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٥٧١

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٠٠١٣ / ٢٠٢١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

لوحة الغلاف: حامد عويس (١٩١٩-٢٠١١)، «فنجان شاي» (تفصيل معدل)، بإذن كريم من عائلة الفنان

«أي تشابه بين روايتي والواقع هو من قبيل المصادفة، ومن ألعاب «كيوبيد» المثيرة للجدل والالتباس والتكرار».

نديم

اعلم ـ أعزَّك الله ـ أن الحب أوَّله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تُدرَك حقيقتها إلا بالمعاناة.

من «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي

مفتتح

هذا الألم عظيم. أريد أن أكتب التماسًا للشفاء، ولكن لا شفاء، أعرف أن انكسار القلب أبدًا لا يلتئم.

عندما كنت صغيرًا، كان يبهجني منظر القافزين في الهواء، ألوان «الباراشوت» تخطف بصري، يعاندون الجاذبية، ويمسك بعضهم بأيدي بعض، يدورون في الهواء ومعه، ثم يهبطون بسلام.

الآن، في هذه اللحظة، أبدو مثلهم، ولكن بدون بهجة، رجل معلق في فضاء بلا نهاية، لا يمكنه أن يصعد إلى السماء، ولا يمكنه أن يهبط إلى الأرض، يدور بلا معنى وبلا هدف.

الجسد بدون روح تنقصه أشياء غامضة، دوائر مخيفة تثقل القلب، وضباب كثيف، ليس موتًا، هو حياة لا تشبه الحياة، ظلال انفصلت عن أصلها، لا تعرفه ولا يعرفها، حلم، كابوس، أعي ذاتي ولكني لا أستطيع أن أملكها، غريبة عني وغريب عنها.

يمنحنا الحب بهجة أولى خادعة، أعرف بحكم التجربة أنها لن تدوم، هذه المرة منحني ألمًا أكبر مما كنت أعتقد، وأعمق مما توقعت، هي السن ربما، أو هي الحكاية التي كررت نفسها ربما، أو هي الفرصة الأخيرة محتمل، ولكن هذا الألم عظيم، وتلك الحالة ستستمر طويلًا.

خواء كامل، وأسئلة كثيرة بحجم الحكاية والتجربة، أقرأ وأكتب بشراسة وكأنني أهرب من الموت، لون الحياة رمادي. حلمت بالأمس أنني ميت، نظرت إلى جثتي بلامبالاة، ابتسمت في ارتياح، فاستيقظت مذعورًا.

حلم يقظة في الشارع: أجري بلا توقف مثل بطلة فيلم «اجري يا لولا اجري»، أعبر نهر الطريق بين السيارات، أخترق شوارع وسط البلد، ثم أتمدد أمام ساحة قصر عابدين، جري بلا توقف، وسماء صامتة لا تقول شيئًا، أعرف الطريق والمكان، ولكني لا أرى أحدًا، ولا أسمع شيئًا.

أستيقظ وكأن يدًا لمستني قبل الفجر، وأكتب على فيسبوك، وأنا نصف نائم:

انكسر قلبي مرتين في عشر سنوات، هو انكسار مروع، لا يُنسى، ولا يُوصف، ولا يلتئم.

ومع ذلك أجدني مندهشًا من طاقة حياة غريبة تجعلني ما زلت قادرًا على القراءة والكتابة، ومشاهدة الأفلام، ومجالسة الأصدقاء، والابتسام في وجه طفل، ومشاكسة قط أليف، والضحك على مقهى في وسط البلد، ومباركة عاشقين، والصراخ بعد تسجيل هدف جميل، ومزمزة كوز درة مشوي، وعمل كوب شاي بالنعناع ساعة العصاري، والسفر إلى الفضاء على جناح صوت عبد الوهاب، وتذكر ابتسامة وضحكة صافية، واستقبال أحلام النوم واليقظة، والاحتفال بنور الشمس، وصوت المطر، ورائحة الخبز، وفوضى النجوم والعصافير، والحماس للجمال أينما كان، وكيفما وجد.

طاقة حياة لا أثر فيها للإرادة، ولا فضل لي في صنعها، هكذا خلقت، وهكذا أعيش.

يا رب لا تحرمني من هذه الطاقة التي وهبتني إياها.

انكسار القلب يعوضه صمود الروح.

لا أخاف الموت، فليأتِ كما يرغب، وكما تشاء.

ولكني لا أريد الموت وأنا على قيد الحياة.

اجعلني أموت في اللحظة التي أفقد فيها طعم الدنيا، وألوان الحاجات.

تذهلني ردود أفعال الصديقات والأصدقاء على كلماتي، التي تحولت إلى حكاية غامضة عن «انكسار القلب» و«صمود الروح» و«الشغف بالحياة»، مجرد فضفضة صادقة يبدو أنها لمست الكثيرين، خرجت من القلب، فوصلت إلى القلوب.

يبدو أن التجارب المؤلمة تُعرفنا على أنفسنا أيضًا، وليس على الآخرين فقط، لم أكن أعرف حجم طاقة الشغف بالحياة في داخلي إلا بعد لحظات الانكسار التي عشتها.

اكتشفت أنني جهاز استقبال ضخم («ريسيفر») يشعر بتفصيلات عجيبة حوله، هذا الأمر يحقق لي بعض التوازن، على الرغم من الآلام الصعبة، وعلى الرغم من أنني أعرف أن هذه الكسور لا يمكن جبرها أبدًا.

تجربتا حب عشتهما أخذتا بالتأكيد كثيرًا من هذه الطاقة، أصابني القلق على هذا الشغف الذي أعيش به، والخوف من لحظة أُسحب فيها على المكشوف، وخصوصًا أنني أغرق في الحب، وأحب بشغف الحياة كلها، حبي للمرأة عمومًا هو أيضًا من مصادر الشغف بالحياة، ومن أهم الأسباب للإحساس بطعم الحاجات.

إحساسي بالأثر الذي أحدثه الفشل والإحباط العاطفي كان مضاعفًا، ترك علامة لا تنمحي، فنحن بشر في النهاية ولسنا حوائط خرسانية.

حتى حائط الخرسانة الذي تصفعه كرة «الإسكواش»، تظهر عليه علامة الضرب، ويحفر عليه ظل كرة «إسكواش».

قلت لنفسي كثيرًا في الأيام الأخيرة: «يا رب، لو كان الحب ينقلب دومًا إلى ألم، ويبدد طاقة الحياة التي أعيش بها، فلا أريده أبدًا، أنا فقط أريد الحد الأدنى من طاقة الحياة لكي أستمر وأعيش».

لو فقدت إحساسي بطعم الدنيا سأصبح ميتًا على قيد الحياة، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، يساوي بالضبط خروج الروح عندي، وليس موت الجسد وتوقف القلب.

الحد الأدنى يعادل بالضبط تعبير «زمزمية الأمل» الذي تكلم عنه صلاح جاهين في رباعيته الشهيرة، وقد تساءل فيها مستنكرًا ومندهشًا كيف يمكن أن تكفيه هذه الزمزمية الصغيرة، التي فيها بعض الأمل، حتى يصل إلى باب القبر.

أحيانًا يكون من الصعب أن تعيش الحياة، لكن من الممكن أن تحولها إلى فن، تخترع حياة موازية، سيكون أمرًا مدهشًا أن يحدث لي ذلك.

أقبل أن أدفع أي ضريبة، وراضٍ جدًّا أيضًا، لأني كنت وما زلت عارفًا بقيمة الحب، وتمسكت به بكل ما أستطيع حتى آخر لحظة.

هذا الشغف بالحياة يستأهل الدفاع عنه، وعنها، لو لم نجده عليها لاخترعناه.

ليكن ذلك أول الخيط: كتابة تحول الألم إلى فن؛ هل أقدر أو أستطيع؟

لقد عرفت الحب وذقته واختبرت علاماته، فكأن ابن حزم كان يراني ويشرح عني عندما كتب في «طوق الحمامة»:

وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي. فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها. فترى الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس.

ومنها الإقبال بالحديث. فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه، والإنصات لحديثه إذا حدَّث، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وخرق العادات، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول.

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه، واطِّراح الأشغال الموجبة للزوال عنه، والاستهانة بكل خطب جليل داعٍ إلى مفارقته.

ومنها بهت يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة. ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة.

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعًا به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعي في حظه، كل ذلك ليبدي محاسنه ويُرغب في نفسه. فكم بخيل جاد، وقطوب تطلَّق، وجبان

تشجَّع، وغليظ الطبع تطرَّب، وجاهل تأدَّب.

ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هجيراه، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهاه عن ذلك تخوف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر، وحبك الشيء يعمي ويصم.

ومن علاماته حب الوحدة والأنس بالانفراد، ونحول الجسم بدون حد يكون فيه، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي. دليل لا يكذب ومخبر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة.

يقولون: «اكتب يا نديم». ماذا أكتب؟ طرقة مفتاح على الكيبورد أم على أوتار الألم والذاكرة الجريحة؟

كيف تَعبُر مادة الحكاية على جسر الفن؟ كيف يمكن أن تكون جديدة؟ وكيف تعبِّر الكلمات عن المشاعر؟ كيف يكون الأمر جديدًا بينما يكتبون عن الحب كل يوم وكل ساعة؟

في كل فيلم حكاية حب، وفي كل طريق قلب حزين، وفي كل حضارة ماكر يعبث بالقلوب، وفي كل سطر امرأة؛ عيون وشفاه ولفتات ولمسات وكلمات.

بدا لي أحيانًا أن لكل قلب حدوتة، وأن عدد المجاريح بعدد البشر، لا وصول ولا طريق، سنون تعاد ودهر يعيد، عدد ضحايا الحب من طرف واحد أصبحوا أكثر من ضحايا السل، هكذا يسخر منا «وودي آلان» في فيلمه «كافيه سوسايتي»، بل لعله يسخر من نفسه، من حكايته، ومن عثرات عواطفه.

فلتكن كتابة تريد أن تجعل من الحكاية فنًّا، مع أن قصة حب ناجحة، في رأيي، أفضل من مليون كتابة عظيمة عن قصة حب فاشلة.

محاولة للفضفضة؟ لا بأس، ولكني كنت دومًا شغوفًا بالقراءة والكتابة عن عاطفة الحب الغامضة، قصتي الأخيرة أيضًا لم تكن تجربة عاطفية فحسب، ولكنها أثارت في عقلي مزيدًا من الأسئلة المعلقة، أسئلة شبه وجودية.

ليست أسهل الأسئلة هي المحاولات العبثية لفهم ماهية الحب نفسه، سحر هو يستعصي على الفهم، وإن كان يمكن وصفه، تسأل فلانًا لماذا أحب فلانة تحديدًا، فيحدثك عن جمالها وشخصيتها وطريقة كلامها ومشيتها وذوقها في اختيار ألوان ملابسها.

تقول له: «أسألك عن سبب حبك لها لا عما يعجبك فيها! كثيرون يعجبون بما أعجبك في فلانة ولكنهم لا يحبونها، ولا يرون العالم من خلال صورتها فحسب».

تأكد لديَّ أن السؤال خاطئ من الأساس، مرسي جميل عزيز رد على سؤال: «لماذا تحب؟» بعبارة صارت مثلًا: «من غير ليه».

الخطأ في أننا نريد من القلب أن يفهم السحر والغموض، نريد إجابة عن حكاية متفردة تصنع قانونًا جديدًا يجعل الحياة أكثر عقلانية.

ليس للحب أي علاقة بالعقل. أي عضو إذن يشعر به؟ قالوا: «القلب»، لأنه يخفق، ولأنه يدق. يقول «هايكو» ياباني:

ما ظننتُه وقْع أقدامها

على الطريق

كان خفقان قلبي

هذا تخمين جديد يقوم به العقل، ولكن حالة الحب تأسر العاشق من ساسه إلى راسه، غموضها وسحرها هو الجزء الأهم من متعتها، لا تقتلوه بالعقل، هو في كل الأحوال لن يقدم إلا تخمينات.

كل ما نستطيعه هو الوصف لا المعرفة، مجرد إيجاد كلمات يفترض أنها تعبر عن الحال، نشوة مثلًا، ن-ش-و-ة، ماذا تعني في جوهرها؟ مجرد رموز تستدعي حالة، أو ما يقترب من الحالة، ولكنها لا تعني شيئًا في ذاتها، نحن من نسمعها فنمنحها المعنى، لنقنع إذن بذلك بدون ادعاء.

حب؟ ماذا يعني الحرفان ضمن حروف الهجاء منفصلين أو متصلين؟ أصوات تستدعي فقط ما نريد، «افتح يا سمسم»، كلمات سخيفة أصغر من الكنوز التي سنعثر عليها، ولكن علينا مع ذلك أن نكتب، ولكن بتواضع جم يليق بالمشاعر، «إذا اتسع المعنى ضاقت العبارة»، هكذا قال الإمام النِّفَّري.

تتشكك كتابتي في الكلمة والحرف، قبل أن أكتب أعترف بعجز الحروف وابتذالها، لم يبقَ إلا الرهان على من يقرأ، أن يتعامل مع الشك والنص باعتبارهما أدوات لكي يطرق أبوابًا مغلقة في ذاته هو.

لا تنتظروا تعريفًا للحب، ولا قانونًا، فالعالم مكتظ بالقوانين، ولا تنتظروا تفسيرًا لماذا أحببت حبيبة، أنا نفسي لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، بل إنني لم أسألها قَطُّ لماذا أحببت شخصًا آخر بينما كل ما أفعله كان ينطق بحبي لها.

كيف أطلب منها تفسيرًا للحب وأنا لا أعرف لماذا أحببتها؟ كيف أطلب منها ألا تحبه وهي لا تعرف؟ أليس من الأسهل أن أطلب من قلبي أن يتوقف عن حبها ليخلصني من هذا العذاب؟

أحبت وكفى، وأحببت فحسب، لا إجابات أبدًا، لعبة غامضة، يبدو أننا فيها مثل خيوط عرائس الماريونيت. «كيوبيد» يلهو، لم يفهمه الرومان قَطُّ، إله الحب عندهم طائش ونزق، طفل عارٍ يضرب سهمه بطريقة عشوائية، يجعل الحب أوله هزل، فيتحول إلى جد، لعله يضحك الآن من عذابات العاشقين.

غموض الحب منحه مظهر القوة الخفية، توصف الحالة في الأرياف بالعمل، تلك الفتاة عملت عملًا لكي يحبها فلان، والكراهية هي الوجه الآخر، فتلك الفتاة عُمل لها عمل لكي تكره فلانًا، لا شيء يمكن تفسيره، فليكن الحل في العمل.

ولكن الأسئلة مع ذلك لا تتوقف، فتحَت تجربة الحب الأخيرة الباب على علامات استفهام مزعجة، ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟ سؤال استدعيته من عنوان فيلم بديع لـ«بيدرو ألمودوبار».

أحد الهواجس المريرة التي سيطرت عليَّ أنني ارتكبت حتمًا جريمة شنيعة تستحق كل هذا الانتقام.

لا بد أنني شرير جدًّا حتى أحرم مرتين من الحب.

حاولت فعلًا أن أتذكر، فلم أعثر على ما يكافئ هذا الإيذاء الخارق؟

طاردني سؤال معكوس: ألم أصنع ولو مرة صنيعًا خيّرًا لوجه الله يشفع لي ألا أفقد حبيبتين وصديقتين وهما على قيد الحياة؟

ألم يكن بحثي عن الحب أصلًا اكتشافًا لمغزى الحياة ولقانونها الذي يدير الكون؟

أرسطو لم يرَ في حركة الكون إلا صعودًا وعشقًا للمحرك الأول، محاولة للعودة إلى الصانع والخالق، معراج روحي يعيد الفرع إلى الأصل، ولعلها أيضًا جوهر الفكرة الصوفية.

سؤال آخر أزعجني: هل لا بد أن يسعد الآخر على حساب شقاء غيره؟

ألا يمكن أن يسعد الجميع بطريقة ما؟ يسقط الحب عن طرف فتنحل المشكلة، بل قد يصبح الجميع أصدقاء؟

شيء واحد يكافئ أن أستعيد حكاية تهز القلب، وربما تستدعي الألم: أن أكتب رواية مفتوحة بحجم الحكاية، لا يحكمها شكل ولا إطار، لكي تستوعب ما أحس به، وما أفكر فيه أو أتأمله في الوقت نفسه.

حكاية بحجم أسئلة أرقتني، لا أضع لها سقفًا وإنما أسير خلفها، أكتب كل فصل كما أريد، وأفكك الصورة ثم أعيد تركيبها.

أحاول أن تجد المشاعر حروفها، محتفظًا بشكوك لا أخجل من تسجيلها.

أكتب لكي أعيش الحكاية على الورق، أحاول أن أكون أنا والآخر، لم يمنحني الحب حرية في الواقع، فلأحاول أن أصنع حرية في رواية.

أريد أن أرى الحكاية من أعمق أعماق الداخل، وأريد أن أراها من زاوية لامعة: ثلاثة أشخاص لا يمكن أن تدين أحدًا منهم، كلهم على حق، وكلهم أسرى الحب والعاطفة.

أريد كثيرًا، والله يفعل ما يريد.

سحقًا لكل الحروف.

سحقًا لكل الكلمات.

١

لو قيل له إن نهاية قصة حب ستكون بداية لقصة حب جديدة، لقال إنه خيال ساذج، لا يليق بكاتب سيناريو من الدرجة الثالثة، ولو توقع ما حدث له بعد أن عرفها، لحاول أن يعود إلى الوراء لكي يغير بعض التفاصيل، حتى لا يتم اللقاء.

ليس صادقًا أبدًا فيما كتب، تجربة لم تكن سارَّة النهايات، ولكن لحظاتها الحلوة، من ناحيته، تستحق كل ما تألم وعانى، ليس صادقًا في كلمات البداية.

تهنئه حبيبة عبر الماسنجر كلما نشر صورة غلاف كتاب جديد، تقول بخفة ظل: «فين نسختي؟»، يعدها بأن يهديها نسخة موقعة عندما يلتقيان، يعرف أن اللقاء لن يتم أبدًا، ابنة الزقازيق لن تزور القاهرة أبدًا، معرفة عابرة مثل أغلب رسائل الماسنجر، لا يمنع ذلك من سعادته بصداقتها الافتراضية.

لفتت نظره شخصيتها المختلفة، وصورة لها بالنظارة الشمسية، محجبة سمراء، ذهبت لكي تشاهد مشروعًا جديدًا في المدينة، جلست على الرصيف، والتقطوا لها صورة حلوة.

تبدو العينان مكحلتين، لكنهما ليستا كذلك. سمراء أم خمرية؟ لعله لون ملتبس مثل شخصيتها الغامضة، مشروع ابتسامة على شفتين رقيقتين، تعلن الثقة عن نفسها، لا بد أنها ولدت كذلك، لم يكن يعرف وقتها أنها صنعت تلك الثقة بعد طول معاناة.

كتبَت فيما بعد أنها ظلت لسنوات طويلة نموذجًا لفتاة مطيعة ممتثلة، «يحطوها في مكانها تتحط»، لا تتحرك أبدًا، هادئة وعادية، فلما انفصلت بعد زواج دام شهورًا انكسرت تمامًا، بكت وانهارت، كلمة من جارة طيبت خاطرها، نبهت عقلها وأيقظت قلبها، قررت في عز لحظة الانكسار أن تولد من جديد بإرادتها، أن تكون وتختار، ولدت حبيبة التي عرفتها.

يكتب بوستات قصيرة عن فنانين قدامى، يتذكرهم بشيء من الحنين، يحكي عن بداية تعرفه على أعمالهم، ترسل حبيبة عبر الماسنجر كلماتها:

على فكرة، البوستات حلوة أوي، بس يا ريت تكون قصيرة، الفيس ما يستحملش حد يقرا بوست طويل، بس والله إنت بتكتب حلو، بعد كل بوست باقراه لماما، بتنبسط جدًّا.

يكتب عن حكاية حب عجيبة عاشها، عن لحظة فقد قادمة، لن تستطيع أن تحبه، ولن يستطيع أن يكرهها، حكاية استمرت ست سنوات قبل ظهور حبيبة، ولكن لقاءهما أقدم من ذلك بكثير، ألم عميق في كتاباته، صدمة كاملة، تدخل حبيبة لتكتب له على الماسنجر:

إنت عمرك أد إيه؟ إزاي بتكتب المشاعر الحلوة دي؟

يرد:

أنا يعني مش عجوز أوي.

ترسل له إيموجي ابتسامة، تواسيه، تبدو مدهشة في تلقائيتها، لا تكتب أبدًا «حضرتك»، تخاطبه كأنها تعرفه، لا تغازله أبدًا، ولكنها طبيعتها وبساطتها الآسرة التي سيعرفها عن قرب، حبيبة الجديدة التي لم يعرف قَطُّ كيف صنعت نفسها، ريفية حسناء، مناكفة، تريد أن تتحقق، ترد بتلقائية على أصدقائها، وتعرف أيضًا متى تضع خطوطًا حمراء، نشرت ذات مرة رسائل تطلب يدها، رجال غامضون لا ترى في كتاباتهم إلا مزاحًا ثقيلًا وسخيفًا.

ذات صباح وجد في بريده الخاص رسالة جديدة منها، صورًا رسمتها بعد أن تعلمت الرسم في قصر الثقافة، سعد بها على الرغم من أنها كانت مجرد محاولات، اشتركت بالصور في معرض، رأى صورتها وسط زميلاتها، مشروع ابتسامة، ووقفة جانبية لامبالية، لم تتحقق بعد لكنها تحركت، كسرت القيود والإطار، طاقة تريد أن تجد نفسها، تكتب:

حبيت ابعتلك الرسومات إنت بالذات لإنك شجعتني، مش ناسية كلماتك لما سبت الشغل القديم.

تذكره بأول إعجاب حقيقي بشخصيتها، إعجاب خالص ودهشة، كان وقتها ما زال في قلب حكاية حب تحتضر، لا يمكن أبدًا أن يراها بديلة أو حبيبة قادمة، أدهشه أن فتاة مثلها عثرت بصعوبة على عمل في مدينة مجاورة، تحاول أن تكون مستقلة، تستيقظ صباحًا لتركب ميكروباصًا يسير بها في مطبات، تعاني في الوصول والعمل، تقرر بكل تصميم أن تترك هذا العمل، ثم تكتب أنها لا يمكن أن تقبل الطريقة التي عوملت بها من زميلة في العمل.

كتب لها على الخاص:

عظيم ما فعلته يا حبيبة، إنتِ صح، أتوقع أن تنتقلي إلى عمل أحسن، أول مرة أشوف واحدة بالقوة دي، ما تخافيش، هتلاقي ما هو أفضل، ما ينفعش اللي عملت الخطوة دي تقعد في البيت.

لم تنسَ ذلك قَطُّ، ولم ينسَ صورها المشرقة بعد ذلك قَطُّ، بالذات عندما تظهر مع أخيها الأصغر، شاب في العشرين تقريبًا، ولكنه أقرب إلى ابن، هنا فقط تظهر ابتسامتها الساحرة، أكثر ما يميزها، في الصورة تكشف الابتسامة عن حسن وصفاء وبراءة وبهجة عميقة، عندما التقيا تمنى ألا تتوقف عن الابتسام أبدًا، أحلى انفراجة شفاه رآها، أما ضحكتها فهي طفولية تمامًا، صوت واحد قصير مفعم بالحياة والنور، بنوتة فازت في لعبة «الأولى» فأخذت تضحك في شقاوة، لا ينقصها إلا أن تصفق لتواكب الضحكة، أنغام مسموعة، مليئة بقوة البهجة، تخرج من الأعماق، فتترك انطباعًا لا يزول.

لا تتوقف عن النشاط، في رمضان تجمع الأصدقاء على مائدة إفطار ضخمة، كل شخص يدفع ثمن وجبته، ويتبرع بثمن وجبة لفقير أو محتاج. في أيام العطلات، تجمع هواة الرياضة، يقومون بالجري، أو بتدريبات سويدية، صور مبهجة. عندما التقيا أخذت تحكي بالتفصيل معاناتها في الحصول على دعم مسؤولي الشباب والرياضة. صورة أخرى، مشروع نادٍ للسينما، عرضت فيلمًا واحدًا عن «اقتفاء أثر السعادة» بطولة «ويل سميث»، ثم توقف المشروع، كانت حكاية غامضة لم يعرفها، هل تبحث أيضًا عن السعادة؟ فتاة مستقلة وجدت نفسها بعد الفشل.

يكتب من جديد عن حكاية حب فاشلة قديمة، يرى ذات يوم صورة دراجة على صفحتها، تطلب اكتتابًا من الأصدقاء على رقم حساب معين لأنها ببساطة تريد أن تشتري دراجة، تنجح في تغطية الاكتتاب بسرعة، تشتري الدراجة، والآن عليها أن تتعلم ركوب الدراجة، تفعل ذلك بعد أيام، بعد أسابيع صورة لحبيبة وخلفها زملاء الرياضة في الزقازيق، يقودون دراجاتهم في قلب القاهرة، الصور على كوبري قصر النيل، هذه الفتاة مذهلة، بدت كما لو كانت تغزو العاصمة.

مرة أخرى كتاب جديد، ومرة أخرى:

فين نسختي؟ قريب جدًّا هاكون في مصر، ممكن نتقابل؟

سعِد بلا شك بالرسالة، ليست سعادة عاشق أو معجب، ولكن سعادة فضول، يجد في معرفة الناس متعة خاصة، بالذات تلك الشخصيات المتفردة، تبدو هي أيضًا سعيدة، بساطة مفرطة، وحديث مباشر، قوية وواثقة، ولا تحتاج أصلًا إلى أقنعة ولف ودوران، قبلها كانت قد أرسلت له نصًّا بائسًا لشاب يريد أن يكون شاعرًا، مشروع جديد:

اكتبوا وابعتوا واحلموا، هاعرض نصوصكم على نقاد وأدباء، هتعرفوا بالظبط إنتم فين، تكملوا ولا بلاش، تشوفوا حاجة تانية، تعالوا نجرب ونشوف.

قرأ النص فكتب لها بصراحة، سعدت كثيرًا وقالت في ثقة:

أنا قلت كده برضه، بس لما يشوف الكلام ده من كاتب معروف، غير ما تكتبه له حبيبة.

أرسل لها إيموجي ابتسامة، عقل جميل أيضًا، والآن يمكن أن يعرفها أكثر، سيكتشف فيما بعد ولعها بالقراءة والمعرفة، تريد أن تعوض ما فاتها، تطلب كتبًا وتسعد بها، وتقرأ بشكل جيد، ولديها ملاحظات ثاقبة وغريبة جدًّا، قلب جميل، وعقل يقظ، دراستها الأزهرية حصرت معارفها في خانة معينة، بعد الميلاد الجديد تريد أن تقرأ في كل مجال، ذات مرة نشر على صفحته نقدًا للفيلم اللبناني «وهلَّا لوين؟»، وأخذ يتحدث عن استلهام الفكرة من مسرحية «ليزيستراتا» لـ«أريستوفان»، علقت يومها بخفة ظل:

وحياة مامتي ما اعرف مين ده اللي بتتكلم عنه، بس نفسي أعرف، عايزة أعرف، باين ده كلام مهم أوي.

مرة كتبت تنظيرًا عجيبًا عن مفهوم الدراما، أرسل لها على الخاص:

يا حبيبة اللي بتكتبيه ده مالوش علاقة بحاجة!

وصلته ضحكتها المرسومة، كتبت:

أنا كتبت براحتي عشان مفيش حد اعرفه هيراجعني، اتبحبحت يا سيدي شوية من نفسي، بس بجد عايزة أعرف.

فيما بعد سيهديها كتبًا في كل الفنون، في الدراما، في الأدب، في السيرة الذاتية التي تعشقها، وستصدعه بمناقشات طويلة حول الأعمال الدرامية، لا تتنازل أبدًا عن رأيها، ولكنها تناقش بوعي وفهم، سيطلق عليها لقبه الأثير: «الغَلَباوية».

أنا جاية مصر بكرة، نتقابل؟

وافق على الفور، كازينو قصر النيل مكانه المفضل، أمامه عبرت دراجتها، ستسأل وتعرفه.

عايزة نسخ من كل كتبك وبإهداء، بأثر رجعي يعني.

رد بسرعة:

طبعًا بالتأكيد.

عندما اقترب الموعد:

مش هاعرف آجي مع الأسف، ظروف عائلية في الزقازيق، خلينا نشوف وقت تاني.

نظر إلى شنطة الكتب في إحباط، ولكنه نسي الحكاية في اليوم التالي، التمس لها عذرًا، وانشغل بأمور كثيرة، كان يعيش فترة ما بعد حبه القديم الخائب، وكانت الدنيا قد عادت رمادية، بعد أن ظلت لسنوات ملونة.

أسابيع وشهور، لا تهدأ هي عن النشاط، ولا تتوقف عن متابعة صفحته، والتعليق على ما يكتب، ولا يتوقف هو عن متابعة حيويتها في كل الاتجاهات، تعلن أخيرًا عن عمل جديد في شركة إعلانات في القاهرة، يتطلب أن تترك عائلتها، وتستأجر مع فتاتين شقة خاصة، مغتربات في العاصمة، يبحثن عن حياة جديدة، أجدع من رجال كثيرين.

لم يكن القرار سهلًا، ولكن «الغَلَباوية» التي يمكن أن تناقش بالساعات، أقنعت والدها المحافظ بأن يأتي معها لاختيار الشقة، وأن يطمئن بنفسه على زميلات الشقة، كان يزورها أيضًا في أوقات كثيرة، يحبها ولكنهما يتناقشان كثيرًا، كل قرار ترافقه أزمة وحوار ووجع قلب، ولكنها تصمم، تعرف طريقها، ويعرف الجميع أنها قوية جدًّا، هشاشة الماضي لم تعد تليق بحياتها الجديدة، فتاة أخرى ظهرت من بوتقة التجربة، كانت دومًا تكسب معاركها، وستفعل ذلك طوال الوقت.

لم يكن ذلك سهلًا، كتبت ذات مرة أنها تعاني آلامًا في العظام، كتبت عن نوبات بكاء حادة تنتابها، بدون مقدمات أو أسباب، بالذات في فصل الشتاء، كتبت بصراحة عن إحباطاتها، عن لون الفشل، عن نظرات الشفقة وربما الشماتة بعد طلاقها، عن مجتمع ذكوري يريد أن يجعلها منقادة.

ترجمت يومًا نصًّا عن فتاة تصف آلام إيذاء بدنها، تصور هو أن النص لها، ولكنها كانت تترجم لامرأة أخرى، اختيارها للنص كان دالًّا، آلام المخاض هائلة، والمعاناة أصعب، يكفي أنها رفضت الزواج بعد تجربتها الأولى، يكفي أنها تكتب دومًا عن فشل مؤسسة الزواج.

فيما بعد قالت له إنها خُطبت مرتين، وأصرت على فسخ الخطبة، كيف يمكن أن تمر هذه القرارات في مجتمع تقليدي؟ ولكنها قررت نهائيًّا ألا تكون حبيبة القديمة التي اختاروا لها، قررت أن أسوأ ما يحدث لها أن تتفرج على حياتها، لا أن تعيشها.

أخيرًا هي في القاهرة، لم يطلب أن يلتقيها، كان في عز فترة قلق وكآبة، يغرق نفسه في العمل، وفي القراءة، وفي مشاهدة الأفلام، يبتسم ويضحك بلا روح، حكايته مع يُمنى تركت جرحًا غائرًا لا يبرأ منه أبدًا، غرابتها أنها قصة طالت بدون أي نهاية سعيدة، ومع ذلك لم يفكر قَطُّ في أن حبيبة يمكن أن تكون حبيبة، لم يكن أصلًا قادرًا على الحب، حطام كامل يعيش يومًا بيوم، ويجد بعض العزاء في الكتابة، لا يخرج إلا للضرورة، ترك فيسبوك لعدة شهور، يسأل عنه الكثيرون، فيقول كاذبًا: «كتاب جديد يحتاج إلى تفرغ»، يرسلون إليه التهاني والتمنيات بالتوفيق، لا طعم للحاجات؛ البيوت مقابر، والشوارع كهوف، والطعام أشياء، والأفلام خيالات، الحياة وقد نُزعت منها الحياة، فصارت حركات آلية لا تعني شيئًا.

عندما عاد إلى فيسبوك كان يكتب اعترافاته حول حب فاشل، يواسيه صديقه المخرج العظيم معلقًا:

مع ذلك نعمل إيه؟ ما نقدرش نعيش إلا بالحب.

فيما بعد سيعرف أن المخرج الكبير سافر في شبابه من لندن إلى الدنمارك وراء فتاة أحبها، وسيقرأ أن سمير الإسكندراني، المغني الشهير، تعلم الإيطالية، وسافر إلى روما، لكي يكون بجوار حبيبته الفاتنة، التي عرفها في مصر.

تواسيه مغامرات حكايات الحب الكثيرة وفشلها، يكاد يجزم أن الحب السعيد وجد فقط في الأفلام، ولكن يُمنى ألهمته كتابين صدرا له، وكتب في نهاية أحدهما شكرًا لكثيرين، منهم تلك الملهمة

السرمدية، يُمنى الجميلة. قال «هيمنجواي»: «إن أفضل كتابة تكون والكاتب في حالة حب»، كان كذلك في الكتابين، وفشلت القصة نفسها.

تعود الحياة رتيبة، ولكنه ينشط في الكتابة، يفر من الملل، ثم يعود إليه، تصدر الكتب تباعًا، يفرح ثم يعود إلى دائرته المفرغة، حبيبة لا تتوقف عن التواصل، يراها مثل ابنة جميلة يقظة، عشرون عامًا تفصل بينهما، خطر له للحظة أنه لو كان أنجب لما أراد أن تكون له ابنة إلا مثل حبيبة.

يزهو بقوتها وشخصيتها وحيويتها الطاغية، لا بد أنها فعلًا كذلك على الطبيعة، بالتأكيد هي كذلك، فيما بعد سيتجاوز ما رآه عند لقائها، ما تخيله عنها، فيما بعد وسط كلامها المبهر سيردد بصوت جريح:

ـ إنتِ ليه اتأخرتِ عشرين سنة؟

تندهش من كلماته، التي قطعت سياقًا لا علاقة له بالكلمات، يكمل في أسى:

ـ طب عشرين سنة أوديهم فين؟ حد بيسخر مني يا حبيبة، ما تاخديش في بالك، كملي، كنتِ بتقولي إيه؟

ذات صباح ذكَّرها بوعده:

شنطة الكتب جاهزة.

ردت على الخاص:

مش هينفع نتقابل يوم خميس ولا جمعة، باسافر البلد، السبت أجازة في الشركة، نتقابل يوم الأحد، سبعة مساء كويس؟

أجاب:

تمام، المكان السابق نفسه، كازينو قصر النيل مكاني المفضل، هاجيب الكتب كمان.

تقول حبيبة بتلقائيتها المدهشة:

مش مهم الكتب، أنا عايزة أتعرف عليك.

في الموعد المحدد كان على طاولته المفضلة في الكازينو، شنطة الكتب ثقيلة، وأثقل منها هموم القلب، حتى في هذه اللحظة لم يكن يفكر في لقاء غرامي، كان مدفوعًا باكتشاف نموذج إنساني

غريب، بتواصل اجتماعي حميم، فعل ذلك كثيرًا، والتقى فتيات وسيدات كثيرات، صرن صديقات رائعات.

السابعة تمامًا، لا يتوقع أن يأتي أحد في موعده، عانى من ذلك كثيرًا في كل الأوقات، لا بأس من بعض الانتظار، كتب لها على الواتس آب:

وصلت.

ردت عليه:

وأنا نازلة حالًا.

من الدقي إلى كازينو قصر النيل مسافة بسيطة، لكن عندما نظر إلى ساعته كانت السابعة والنصف.

على الواتس آب كتب علامات استفهام، جاء الرد سريعًا:

آسفة جدًّا، باتابع تبرعات باجمعها عشان الناس المحتاجة، هانزل فورًا.

كان من مشاريعها الدائمة جمع التبرعات للمحتاجين، أمها لها نشاط اجتماعي كبير في الاتجاه نفسه، ربما يكون ذلك هو كل ما أخذته منها، فيما عدا ذلك تبدو حبيبة وأمها مختلفتين تمامًا، كتبت حبيبة مرة بوستًا مؤثرًا عن حذاء «الكوتشي» الذي تمارس به الرياضة، عادت من القاهرة مرة فلم تجد الحذاء، ألقته أمها في صندوق القمامة.

قال لنفسه: «لا بأس من الانتظار». لم يفعلها مع أحد، ولكنه وجد نفسه غير قادر على الحركة، مثل جثة أُلقي بها على شاطئ النيل، لم يزعجه الوقت، أزعجته الذاكرة، كلها مشاهد من حكايته مع يُمنى، أوجعه قلبه، وانفردت به وحدته، شعر بالرثاء لذاته، تمنى لو أن له قلب «هولاكو» القاسي، تمنى لو لم يأتِ أصلًا إلى الكازينو، أراد أن يهرب من ذكرياته، تنبه أن ساعة مرت وهو في انتظار فتاة لا يعرفها، لم يستغرق وقتًا لكي يقرر القيام والمغادرة.

هو في السيارة، على الواتس آب كلمات حبيبة:

أنا في الطريق.

لم يرد، بعدها بدقائق كلمات أخرى:

إنت مشيت؟ فعلًا مشيت؟

وبعد دقائق على الواتس آب:

أنا مروحة في تاكسي، بابكي.

كان ثائرًا وحزينًا ومحبطًا ومصدومًا، انهارت صورتها التي رسمها، ليست مسألة موعد، مسألة احترام وجدية، كيف تبدو حبيبة بهذا الاستخفاف بالآخرين؟ لا يشك أنها تريد ملاقاته، ولا يشك أنها تحترمه، ولكن هذه الفتاة ليست بالصورة التي تخيلها، لا داعي لوجع القلب، قال لنفسه: «أنا مش ناقص كآبة وقرف».

عندما عاد إلى بيته، كان أول ما فعله أن عمل بلوك لحبيبة، اعتبر الحكاية انتهت قبل أن تبدأ.

لم يكن يعرف أن البلوك كان البداية الحقيقية للحكاية.

لا تتعلم من أخطائك يا نديم، وتغالط عندما تكتب. تتحدث عن الفضول ولا تتكلم عن جرح قديم أردت أن تتجاوزه، أغلب الظن أنك كنت تريد أن تستعيد تجربة الحب ولو بصورة لاشعورية، الفشل ما زال حاضرًا، ولكن لحظات السعادة أيضًا كانت موجودة، لا تقل لي إن رغبتك في لقاء حبيبة كانت خالصة لوجه الفضول والاكتشاف، ولا شيء يبرر غضبك، ومغادرتك، سوى هذه الكبرياء الجوفاء، التي فضحتها التجربة الأولى.

تحكي وكأن القارئ يعرف يُمنى، ولا تستطيع تفسيرًا لهذا التناقض: تحب حسناء بيضاء أكبر منك، ثم تلتمس السلوى مع سمراء أصغر منك بعشرين عامًا.

تريد أن تكتب فنًّا أم أن تعيش حبًّا؟ لا أفهمك، أحاسبك بقسوة لأنني أعرفك جيدًا، تتهمني بالفلسفة وأنت من صنعت مني عقلًا لا ينام، يفكر ويتأمل، ويصنع مسافة دائمة بين الحالة وتفسيرها، ما تحكيه ليس ما حدث بالضبط.

ستحدثني من جديد عن سؤال الفن وسؤال الكتابة، ستثرثر عن القلب الذي يعيش، والوعي الذي يكتب، لم تجِب قَطُّ عن السؤالين، أحيانًا أعتقد أنك تعيش وهمًا عظيمًا، خيالك أقوى حتى من الحب، تريد أن تكتب لا أن تحب، وأثناء التجربة تضع العقل جانبًا، تترك نفسك للحكاية، وأنت متأكد من نهايتها الخاسرة.

بكت حبيبة بسببك حتى قبل أن تلتقيا، وفي أول لقاء ستحكي لها تفصيلًا عن حكايتك مع يُمنى، هذه تناقضات داخلك أنت، لا علاقة لها بحبيبة أو بيُمنى، وتقول بعد كل ذلك: «كنت ألتقي بها بدافع الفضول»؟! وتقول: «أبحث عن نموذج إنساني يضاف إلى حبات مسبحة الصديقات»؟ تضحك على القراء الذين ينتظرون حكاية رومانسية تتقاطع مع حكاياتهم التي لا تعرفها؟ لن تضحك أبدًا عليَّ، ولن أتركك تكتب الحكاية كما تريد.

أبعدتني قسرًا عن الحكايتين، تقول دومًا إنه عندما يبدأ الحب يجب أن يتوقف العقل، توقفت مرغمًا وصامتًا، ولكن عندما تنكسر سأحمل عنك كل الخسائر، أكون دومًا مثل أُم عاد إليها ابنها منهارًا بعد أن فقد شنطة كتبه، أخجل أن أقول لك: «لماذا لم تسمع الكلام؟»، وتخجل أنت أن تنظر إليَّ، تمارس الجنون، وتريد أن ينقذك العقل في كل مرة؟ فعلتها مرتين، والآن وأنت تحكي أريد فقط أن أشهد، لن أتركك لتنفرد بالحكاية.

تقول: «لا شيء اسمه «الواقع» منفصلًا عن ذات تدركه وترويه من زاويتها»، طيب يا سيدي، اسرد، ولكن لا تحاول أن تخدعني من جديد، تقول أيضًا: «إن المادة لا شيء، يصبح لها معنى فقط إذا شكلناها، وإذا صارت كائنًا متناسقًا ومستقلًّا حتى عن صاحب الحكاية. أنت الذي تتفلسف ولستُ أنا، صرت مفلسًا، تريد أن تطيب الجروح بالكتابة، لعلك تحب الحب نفسه، لا حبيبة ولا يُمنى».

من يقرأ بداية الحكاية يظن أن حبيبة هي الحب الوحيد، وكأن يُمنى لم تكن منذ سنوات قليلة في المكانة نفسها، كان العالم مختزلًا فيها، وكنت تكتب عنها بالشغف نفسه، لن أقول إنها مراهقة متأخرة، لا أحب أن أقسو عليك، لأن عذابك كان حقيقيًّا، ولكنك كررت حكايتين بالتفاصيل نفسها تقريبًا في عشر سنوات، أحببت مرتين في آخر عشر سنوات من حياتك، وتقريبًا بالنهايات نفسها، دائمًا حكاية من طرف واحد، ترتبط بفيسبوك، تُترجَم إلى لقاءات، لا تفكر أبدًا أنك أعدت قصة يُمنى نفسها من خلال حكاية حبيبة.

لا تسب ولا تشتم، أنا أرثي لك، ولكني دومًا الذي يحمل الهم، تتهمني بأنني سبب الأرق، طيب قل لي ماذا أفعل؟ لن يفهم أحد حكاية حبيبة إلا بالعودة إلى قصة يُمنى، لا تجد تفسيرًا دومًا للحب، ولا تجد معنى أصلًا لهذه الحالة، تصبح ملبوسًا، وتلتمس مني الشفاء والعلاج؟ «كل مرة نرجع المشوار بجرح»؟ هل تتوقع أن أفسر لك ما لا يمكن تفسيره؟

لا أنكر أنني أفكر أفضل وأنت تحب، بهجتك تلهمني بأفكار حلوة وعذبة، لا أعرف فعلًا ماذا يحدث لي، تحكمني قوانين المنطق، ولكنها تصبح وأنت تحب ملونة، والله لا أعرف ماذا يحدث لي، أُلامس حدود الأبدية مثل «فان جوخ»، الفكرة وأنت تحب لا تظهر فقط، إنما تشرق مثل نور الشمس، العقل أيضًا ينتشي، يشعر بكل اللذات الحسية، لا تتعثر في جملة، أعترف، ولا تتعبك عبارة، وكأن ما أفكر فيه يكتب نفسه، ليتها دامت هذه اللذة.

حسنًا، يبدو أنني سأقع أيضًا في الحب، في هذا السحر الغامض، الذي جمع بين بيضاء وسمراء في أنثى واحدة، أحببتهما أنت، وتعذبت أنا في رفع الأثقال، وإزالة الأنقاض، ومداواة البكاء على الأطلال.

يبدو أنني متعاطف أكثر من كوني ثائرًا، ولكنني أيضًا تعبت، تتحدث عن قلبك المشروخ أو المجروح لا أعرف، ثم تنسى ما عانيته أنا. هل تعرف معنى أن تعطلني لسنوات فلا أتدخل وأنا أراك تتجه إلى حارة سد؟ تواسيني بالكتابة المبهجة ولا تهتم بأن أتعذب بصمتي؟ أتحقق بك، وتتحقق بي، ولكنك لا تكتب الحقيقة، في سبيل أن تصنع فنًّا.

لا بد أن أقول لك بدون مجاملة إنك خائب في الحب وفي الفن أيضًا، لا أدعي شيئًا عليك، يأتي ذِكر يُمنى عابرًا، وهي الحكاية الأصلية التي جعلتك تعرف الحب، قصتها أغرب من حبيبة، لها فصول قديمة، وأخرى جديدة، فيلم تعيشه من جزءين، هي اليوم ليست معشوقة ولا صديقة، أنت لا تستطيع ـ كما تكرر ـ أن تحول حبًّا فاشلًا إلى صداقة، هي مشكلتك نفسها اليوم مع حبيبة، وكأن الاثنتين حكاية واحدة بوجهين، أتعبتني، ولا تريدني أن أغضب؟

أنت الذي ابتعدت شهورًا عن فيسبوك بسبب يُمنى، هذا العالم الافتراضي هو أيضًا الخط الواصل بين الحكايتين، محتمل جدًّا أن يكون الخيال هو الذي يورطك في حكاياتك الغريبة، الشتيمة لا تلتصق، لن أتوقف، وأنت بدوني مشروع قصة لم تتحقق، لن أتوقف وسأحكي ما أعرفه، أقسو عليك لأني أحبك، تقول لا يوجد حب عاقل، الحب جنون، حبي أنا عاقل، ولذلك تراني ثقيل الظل.

لا تهرب من حكاية يُمنى، هي التي ألهمتك طويلًا، وقلت عنها إنها «ملهمة سرمدية»، أهديتها كتابين كانت ملهمتهما، أنجزتَهما في زمن لا يُذكر، أعترف بأني عملت معك في سعادة، يجب أن تحكي بشكل أفضل، سأحاسبك على كل التفاصيل، وسأكتب ما تتناساه.

أنت من كتب يومًا في عز جرح يُمنى متفلسفًا ولست أنا:

ربما يكون أعقد ما في الحب بين الرجل والمرأة أن كل حكاية لها قانونها الخاص، وأنه على الرغم من بهجة العاطفة، فإن احتمالات الفشل تبدو دومًا قوية للغاية.

حتى الأخ «إيروس» إله الحب عند اليونان (وهو نفسه السيد «كيوبيد» عند الرومان) عرف البهدلة في حب فتاة اسمها «سايكي»، كانت أمه «أفروديت» إلهة الجمال عند اليونان (هي نفسها «فينوس» عند الرومان) غير موافقة على زواجه منها، وتطلَّب الأمر اللجوء إلى «زيوس» رب الأرباب لكي تكتمل الحكاية.

الحقيقة أن القصة «ملخبطة» من أولها: «إيروس» أمه إلهة الجمال فعلًا، ولكن والده هو «آريس» إله الحرب عند اليونان (هو نفسه «مارس» عند الرومان) يعني أخذ الجمال عن أمه، وأشعل في قلوب البشر مشاعر مدهشة، ولكنها ممتزجة بحرب ضروس موروثة عن والده، بل إن «إيروس» تم تصويره كطفل صغير نزق، يحمل شباكًا أو سوطًا أو قوسًا وأسهمًا لكي يشبك بها قلوب العشاق. الموال من أوله له وجهان، وأنت وحظك: فإما أن تنعم بسعادة «أفروديتية»/«فينوسية»، أو تدخل حربًا ماركة «آريس» أو «مارس»، وفي النهاية، لا لوم ولا عتاب على طفل طائش، أصابه هو شخصيًّا أحد سهامه، فأحب بنتًا اسمها «سايكي». اللوم والعتاب على من يسمع كلام العيال.

النهايات السعيدة مرتبطة أكثر بالخيال، بقصص «ألف ليلة وليلة»، وبحكاية «سندريلا والأمير»، وهذا الطوفان من النهايات السعيدة في القصص الخيالية لا يعني أكثر من محاولة لتعويض الفشل في الواقع، بل إن مبالغات الحكايات الشعبية، بالحديث عن قصور بنيت من طوبة فضية وأخرى ذهبية، لا تعني سوى أن الراوي يريد أن يهرب من أكواخ الطين والبوص، وكلما زادت سطوة الواقع، زاد تحليق الخيال. ما لم نحققه في حياتنا الفعلية، يمكن أن يجعله الفن أسطورة. هذا فقط ما نملكه، في مواجهة «إيروس»/«كيوبيد» ومقالبهما، وتصرفاتهما غير المسؤولة.

حتى في عيون الأعمال الأدبية الرومانتيكية، انتهى الحب إلى كوارث حقيقية، كما في رواية «آلام فيرتر» لـ«جوته»، وفي «روميو وجوليت» لـ«شيكسبير»، بدا بوضوح أن الوجه الآخر للاستحواذ على الإنسان باسم الحب، هو الاستحواذ على الإنسان باسم الموت.

«فرويد» زادنا من الشعر بيتًا، فاعتبر الحب هو التعبير الأسمى عن غريزة الحياة، ورأى في الكراهية والحرب والتدمير التعبير الأسمى عن غريزة الموت، والغريزتان أصيلتان ومغروستان في الطبيعة الإنسانية، كل ما في الأمر أننا نستدعي إحداهما ونترك الأخرى، وفقًا للظروف

والأحوال، بل إن لحظات التحول من الحب إلى الكراهية شديدة السهولة والمرونة، يعني من الحب إلى الكراهية وبالعكس.

في الأعمال الأقرب إلى واقعية الحياة بخشونتها، لا نهاية سعيدة في الغالب لقصص الحب، مثلما حدث للدكتور «يوري زيفاجو» مع «لارا» فى رواية «دكتور زيفاجو»، ومثلما حدث في حالة حب من طرف واحد من كمال لعايدة شداد في «بين القصرين» لنجيب محفوظ، بل إن أسامة أنور عكاشة لديه مسلسل بديع بعنوان «الحب وأشياء أخرى»، تنتهي فيه قصة حب بين ممدوح عبد العليم وآثار الحكيم بالزواج، ولكن سرعان ما تلعب «الأشياء الأخرى» دورَ هادمِ اللذات، ومُفرق الأولاد والبنات.

أما خلاصة ما قرأت من دراسات في الحب وعنه، فهو أن تلك الكتب تصف الحالة بدقة، ولكنها لا تستطيع أن تحدد أسبابها، ولا أن تفترض لها أي نهاية.

كل قصة حالة مستقلة تقريبًا، ولا يوجد قانون عام لكل الحالات.

بالنسبة إليَّ، عندما يطرق الحب الباب، يفرح العقل، وتبتهج الروح، وأطلب من العقل أن يفسح الطريق تمامًا للعاطفة، فيفعل على الفور. أعيش العاطفة تمامًا بدون منغصات عقلية، مع الاستعداد دومًا لنهاية غير متوقعة، ولا علاقة لها بالمقدمات.

عندما أصل إلى طريق مسدود تطلب العاطفة المنهكة من العقل أن يتدخل، ليحاول إغلاق الصفحة وحماية ما تبقى من مشاعر جميلة، هنا فقط يعود العقل للتدخل آسفًا، وتدخل العاطفة حالة طويلة من البيات.

هذا ما فعلته في تجربة أخيرة، مجرد حكاية أسفرت عن آلام لا حد لها، ولن تسفر بالتأكيد عن نسيان قريب، وعزائي أن إله الحب نفسه قد شرب من الكأس نفسها ذات يوم، وأنه ابن هذا التناقض، الذي جمع بين إلهة الجمال وإله الحرب على فراش واحد، لندفع نحن الثمن إلى الأبد.

استمتعوا بالحب عندما تجدونه، عيشوا معه بكل تفاصيله ومباهجه، تمسكوا به حتى آخر لحظة، فهو أعظم طاقة إيجابية تحرك الإنسان، أعظم جهاز لاستقبال بهجة الحياة ومذاقها، بدون هذه الطاقة يبدو أي شخص مثل سيارة بدون وقود، السيارة جاهزة الإمكانيات، ولكنها لا تنتقل خطوة من مكانها، أو تتحرك بـ«الزق»، ولكن لا تندهشوا إذا وقعت الواقعة بين الطرفين، هكذا تسير الأمور، وهذا طبع العواطف المتقلبة.

إذا لم تستمر الحكاية سيبقى منها وشْم ذكريات محفورة في القلب والوجدان، ومعانٍ نبيلة وجميلة نتمنى أن تعود، وربما مشروع فكرة لكتابة عمل أدبي، على الرغم من أن قصة حب حقيقية ناجحة أعظم مائة مرة، في رأيي، من مليون رواية رائعة مستلهمة من قصة حب فاشلة.

أنت من كتب ليُمنى خطابًا ورقيًّا بائسًا، لا تعرف حتى اليوم هل وصلها أم لا، مع أنكما التقيتما وتكلمتما بعد سنوات طويلة.

أنت من تعثرت فلم تعترف لها بحبك، جعلتني أضحوكة، أخذتما تضحكان كالبلهاء، قهقهة عالية في مقهى «بوتشيلي» بجوار مسرح الهناجر، وكأنكما تشاهدان مسرحية هزلية، تحومان حول الحكاية، وتتفرجان عليها بدلًا من مواجهتها، وأتفرج أنا عليكما وأتعجب من هذه الفوضى العبثية، فوضى «كيوبيد» اللعين كما تصفه دائمًا، من هو أصلًا؟ ولماذا يوقفني عن العمل؟ لماذا يعبث بنا على هذا النحو؟ أسطورة مريحة، ولكني لا أفهمها، لا أحب ألا أفهم، إذا توقفت عن معرفة الأسباب أموت فورًا، وأنت تعرف ذلك.

لا تشتم من جديد، ولا تتجاهل ما يؤلمك، قل كل شيء، أعرف أن كتابة الألم أصعب كتابة، ولكن نصًّا عن الحب هو نص يجب أن يتأمل الحب أيضًا.

لا أطلب تفسير اللحظة التي تجعل الحياة فجأة مختزلة في امرأة بعينها، أطلب أن تحكي بحرية وبدون أن تختار، الذاكرة تنتقي بدون تدخل؟ طيب سأُذكرك أنا، سأتدخل عند اللزوم، فقد نصل في نهاية الحكاية إلى أمر ما، جسم ملموس، أساس نبني عليه، لا يمكن أن يفهم أحد حكايتك مع حبيبة بدون أن تفضفض عن حكايتك الأطول مع يُمنى، أنت الراوي، ولكني المراجع والرقيب، اتفقنا؟

أتذكر دهشتك، وأذكرك بها، عندما قرأت للمرة الأولى نص «جوته» المترجم «آلام فيرتر»، أحد أشهر النصوص الرومانسية في تاريخ الإنسانية، استنكرت سذاجة وبساطة الحكاية، واستعجبت لأن الرواية أطلقت موجة من حالات الانتحار، بعد أن وجد فيها الشباب خيبات قصصهم البائسة، تقاطعت مأساة «فيرتر» مع مآسيهم، كنت يومها على البر، عوامًا ومتأملًا ومندهشًا، على الرغم من إيمانك النظري بوجود الحب، لعلك تمنيته أيضًا.

أتذكر ارتياحك لأنك لا تحب ولا تتعذب، كانت حجرتك في المرحلة الجامعية مفتوحة لاستقبال ضحايا الحب، يأتون لكي يحكوا ويفضفضوا، يبكون أحيانًا، يذهلك هؤلاء الممسوسون بالجمال، قلت لي مرات:

هؤلاء البشر ليسوا في حالة طبيعية، ولكني أحبهم، وكأنهم كائنات خُلقت توًّا، فيهم براءة وسذاجة، وطاقة حياة يمكن أن تعيد خلق الكون، أحبهم جدًّا، ولكني أخاف أن أكون مثلهم، يعذَّبون جدًّا، ولا تملك لهم شيئًا، ولا أعرف لماذا يتوسمون فيَّ أنني حكيم الغرام، شكلي وهيئتي يوحيان بذلك؟! لا أعرف ماذا أقول لهم، أواسي وأطبطب وأستمع في صبر جميل، يخرجون من الحجرة أكثر ارتياحًا، ويتركونني أكثر حيرة، ولكني أقول مع ذلك: «أنتم الناس أيها العشاق».

كنت يومها تكتب قصصًا قصيرة، ليست بينها قصة واحدة عن الحب، ماذا تعرف عن الحب لتكتبه؟ بين «فيرتر» وحكايات الطلبة، وقراءات في «طوق الحمامة»، ظللت دومًا على الشاطئ، كنت دومًا، وأنا معك، على شاطئ الحياة، وقفنا نقرأ ونتأمل أكثر مما نجرب ونختبر.

كنت سعيدًا بأنك خالٍ، هكذا تنصح الأغاني التي تحفظها، وكنت أنا سعيدًا براحة البال، «وهيَّ راحة البال يا عيني شوية؟».

أخيرًا أحببت وتعذبت، هذه حكمة لا تليق أبدًا برجل فوق الخمسين، نعم صاحَبتك طوال هذه الفترة، فلا تخدعني ولا تخدعهم.

اكتب عن يُمنى، فهي البداية الصحيحة للحكاية.

ذلك الصباح في مقر الجريدة القابعة في المهندسين، لم يكن صباحًا عاديًّا، كان ميلادًا جديدًا، صدفة صنعت عشقًا.

دخلت يُمنى حجرته مبتهجة، لكي تسأل صديقها، الصحفي الكبير، عن رأيه في العمود الذي كتبته، كانت تكتب يوميًّا، وتفرح كثيرًا مثل طفلة إذا أثنى أحد على ما تكتب، استمع بدون مبالاة إلى ثناء الصحفي الكبير، ولكن عندما سمع صوتها الحنون للمرة الأولى لم يملك إلا أن يرفع رأسه عن الأوراق، فصعقه جمالها.

شيء ما جعله ينظر كالأبله، فتاة في الثلاثينيات من العمر، بيضاء، عينان بريئتان مندهشتان، وأناقة لافتة، وصوت يشبه القطيفة الملساء، ملون وناعم، أو لعله تخيل ذلك، في تلك اللحظة لم يعد هو كما كان قبلها.

كان مفتونًا بما تكتب، ولكنه لم يكن يعرف صاحبة هذه الكتابة العذبة باذخة الخيال، كانت توقع بكلمة واحدة: «يُمنى»، لا تكرر فكرة واحدة، وعلى الرغم من عدد الكلمات القليل، فإن حكاياتها بدت مثل البساط السحري، خيالًا محلقًا، مع أنها تهرب من واقعها، أو على الأقل تعيد تشكيله.

لم يكن يقرأ كثيرًا في جريدة اقتصادية، تتحدث عن البورصات والأسهم والسندات، علاقته بعيدة من الأساس عن الفلوس، ووجوده في الجريدة نشاز، لا يخفف منه إلا أنه يعمل في صفحة الناس والمجتمع، مع الصحفي الكبير، والآن سيخفف منه أن يعرف أن هذه الفاتنة، صاحبة الصوت المسكون بالرقة، هي نفسها صاحبة العمود المدهش، الذي يكون دومًا أول ما يقرأ كل صباح مع كوب الشاي، ثم يحبس بصفحة الفن، وبعض السياسة، ودمتم.

اللحظة التي تلغي العالم إلا واحدة هي لحظة الحب، الصحفي الكبير سيكون أول من يلاحظ ذلك، لا شيء أبدًا يمكن أن يصنع خطًّا بين اثنين إلا الحب، فيما يتعلق بيُمنى، فهي نقيض صاحبنا: هو خارج توًّا من بطالة كئيبة، صحفي شارع لا يجد عملًا، وعندما يجد مكانًا تحدث كارثة تغلق الصحيفة، ومعيد في قسم الصحافة بجامعة سوهاج، قرر ألا يذهب لاستلام عمله، قانعًا بفشل قاهري مرير، لم يرِد أيضًا أن يكون معيدًا، ولكن شقيقه سحب أوراقه، وقدمها باسمه، فصار لسنوات معيدًا على الورق، حتى زهقوا منه ففصلوه.

بؤس البطالة ما زال منعكسًا على هيئته المبهدلة، وعلى نظارته السوداء، على حزن عميق في العينين، هذا إذا تصادف أن كلف أحد خاطره أن ينظر في عينيه، تمر به فلا تراه، يأتي يوميًّا ليكتب ويترجم ويراجع ويحرر، ثم يغادر إلى عمل مؤقت أيضًا في المجلة الحكومية الأسبوعية. كان الهامش مجسدًا في شخص، لم يعد يحلم بأي شيء، ولولا بقايا البهجة من مشاهدة الأفلام في سينمات «مترو» و«أوديون» و«قصر السينما»، ولولا متعة القراءة في كتاب قديم من سور الأزبكية، أو في

مجلد صحيفة عتيقة في إحدى قاعات هيئة الكتاب، لأصبح مجرد «روبوت»، لا يعرف كيف ولا لماذا يعيش.

في المساء يقبع في حجرته مع رفاق السكن المفروش، شقة في شارع الجيش، عالية السقف وفسيحة، ولكنها لا تخلو من مشاحنات ومنغصات، صاحب الشقة، الذي أجَّرها لهذا الخليط المتنافر، شبه مجنون، لديه وساوس قهرية، وأحاسيس اضطهادية، مندفع وجبان، ويمكن أن ترى له وجوهًا وأحوالًا متعددة في ساعات قليلة، لديه مشكلة مع أخيه، الأكثر منه جنونًا، قسموا ميراث البيت، كل واحد يمتلك دورًا، ومقالبهما لا تتوقف، مثل «توم» و«جيري»، مطاردات ومعارك طوال اليوم، وصراخ وشتائم وشكاوى متبادلة في قسم باب الشعرية، سيرك يومي متنقل، بينما هو يتأمل ويراقب، يواسي نفسه بأنه سيكتب عن الأخوين رواية، وبأنه سيصنع منهما نموذجين أدبيين ينافسان نماذج «ديكنز» العجيبة.

هي جميلة حقًّا، كلٌّ يراها كذلك، أما صاحبنا فلا يراها إلا وسط هالة من نور وضباب، يراها مزيجًا من نساء «رافاييل» و«موديلياني»، وكان وقتها يحاول أن يرسم، يراها كائنًا غامضًا، ليست في مقتبل العمر، ولكنها أنثى ناضجة، عنوان على أجمل ما يحب أن يراه، أو هكذا يصور له الحب، قال وقتها إنه الحب من أول نظرة، فلم يعد يرى غيرها في المكان.

عرف أنها عاشت تجربة زواج سابق، وعرف أنها كانت تعمل في مؤسسة مالية كبيرة، قبل أن تعمل في جريدة اقتصادية، طلبوا منها أن تكتب ففعلت، انبهروا بكتابتها، أقسمت إنها تفعل ذلك للمرة الأولى، كانت الكتابة بداخلها حتى وجدتها، كانت سعيدة، أنيقة، لا ترتدي الزي نفسه مرتين، تحلم على الورق، بينما تبدو في الحقيقة مثل حلم يسير على قدمين، وكان هو مذهولًا مما يحدث له، أكثر من ذهوله مما يحدث منها.

يراقبها طوال الوقت في صمت، لا تراه أصلًا وهو يمر عابرًا، يتمنى أن تنظر عرضًا ليظهر أمامها وسط مجاميع، لم يعد يشاهد الأفلام الرومانسية من الخارج، صار جزءًا من تلك الأفلام، يدخل إلى الشاشة مع أبطالها، يفهم جنونهم ونزقهم، لا يرى الصورة من الخارج كما كان يفعل، بل يعيش في قلبها.

تمنى أن تنظر إليه ولو بلامبالاة، مرة وحيدة سأله أحد زملاء العمل أن يساعده في جلب عدة أصص زرع أخضر من الشارع، نزل معه على مضض، حمل بعض الأصص مع زميله، عندما عادا حانت من يُمنى للمرة الأولى التفاتة إليهما، كان مكتبها في مدخل الصالة الواسعة، التي هي أول ما تراه عند الدخول، لاحظ التفاتها، فكاد يسقط الزرع من يديه، كانت تنظر إلى الزرع وليس إليه، وكتبت في اليوم التالي عمودًا عن هذه الزيارة الخضراء التي جعلت المكان أفضل، فاعتبرها كتابة عنه هو، على الرغم من غيرته من أصيص زرع.

عندما تغادر يقفز من مكانه، ويتسلل بأي عذر لكي يراها، تركب سيارة صغيرة خضراء اللون، ويبقى هو في الشارع يحملق كالأبله، يحسد نفسه لأنه يعيش تحت السماء نفسها، ويتنفس الهواء

نفسه، يستخدم مثلها الورق الدشت نفسه في الكتابة، هذه المشتركات وجيهة تمامًا وليست هينة بالمرة.

صار يطبق كل ما يقرأ في كتاب «طوق الحمامة» على حالته، وبالذات ما يتعلق بهيبة الوقوف بين يدَي المحبوب، علمته مهنة الصحافة أن يتغلب على خجله، ولكنه اليوم بائس ووحيد، لا يستطيع أن يتكلم، ولا يفهم نفسه ولا تصرفاته، شخص آخر حل في جسده، سيطر عليه ويقوده، حائر مثل طفل تركته أمه أسفل جرس المدرسة، ولم تعُد قَطُّ إليه.

يواسيه ابن حزم حين يكتبه:

ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه. ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجحًا ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه وصحة مودته له.

ويضيف فيريح قلبه:

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء. ولقد امتحنت الأمرين، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف، لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلل، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع، وأتحلل بلساني، وأغوص على دقائق المعاني ببياني، وأفنن القول فنونًا، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي.

ينهمك في كتابات وترجمات بائسة، «أو جي سيمبسون» متورط في قتل زوجته، قتلها فعلًا ولكنه يحصل على البراءة، لعله مظلوم، وسائل الإعلام صنعت من قصته ملحمة، الأميرة «ديانا» نزلت حمام السباحة في القاهرة، صوروها عارية، حلوة مثل «أفروديت»، في صور أخرى تزور الجوامع وعلى رأسها طرحة، يثرثرون في الأخبار عن عارضات ذلك الزمان «كلاوديا شيفر» و«سيندي كروفورد» و«ناعومي كامبل»، يتحدثون عن «مايكل جاكسون» والأولاد الذين يعيشون معه، جميلات ونميمة في المجلات، ولكن يُمنى هي الأجمل، لماذا لا يكتبون عنها؟ والله صورتها «تنفع تزين الجرانين».

ذات يوم وصل إلى قرار ارتاح إليه، هو معجب بكتابتها قبل أن يعجب بها بوقت طويل، سيرتدي قناع الزميل المعجب محاولًا السيطرة على نفسه، سيحاول أن يكون مهندمًا، يتقدم من الزميلة يُمنى، لن ينسى أن يكون هندامه معقولًا، لا يوجد لديه زي معقول، ولكن لا بأس، الكاتبات عمومًا لديهن أولويات أعمق، سيعبر لها في كلمات وجيزة عن إعجابه الصادق بما تكتب، لا بد أن يحفظ عبارة واحدة كاملة، لن ينظر طبعًا إلى عينيها، هذه مخاطرة يمكن أن تصيبه بالخرس، وتجعله أضحوكة،

فليركز خلفها تجاه أصيص الزرع، أصيص السعد والهنا، الآن يمكن أن يتفهم أن أحمد رامي قد أحب يومًا «قُلَّة» وراء المشربية، اعتقد أنها طيف امرأة.

لم تصمد الفكرة طويلًا، احتمالات الفشل و«العك»، أكثر من احتمالات النجاح، وهيبة المحبوب غلَّابة، وابن حزم مرجع موثوق، ليت زملاء الجامعة يشيرون عليه في هذا الموقف، ليتهم يتذكرون أنه كان يستمع إلى خيباتهم، ويسعد دومًا أنه ليس في مكانهم، صار الآن أسوأ من حالهم.

استقر أخيرًا على أن يكتب لها خطابًا، يعبر لها فيه عن إعجابه بما تكتب، يكتب أولًا بحرية تمتزج في كلماتها عبارات الإعجاب بها مع عبارات الإعجاب بكتابتها، ثم يحذف عبارات الإعجاب بها، يصنع خطابًا «مَخْلِيًّا»، مثل رقيب عتيد انفرد بسيناريو فيلم فأطاح بكل المحظورات، و«سَخَط» السيناريو لكي يكون جزءًا من السينما النظيفة المرضية للجميع.

كان زمن الخطابات ما زال حاضرًا، وكانت قدرة صاحبنا على الكتابة أفضل من قدرته على الكلام، كتب الخطاب، عرَّف نفسه بأنه زميل في الصحيفة نفسها، كتب اسمه، قال إنه يعشق الدراما، ولذلك أراد أن يعبر عن تقديره لكتابتها بطريقة درامية، ابتسم راضيًا من تعبيراته السخيفة، اشترى طوابع، وألقى الخطاب في صندوق البريد، لم ينتبه إلا بعد أن ألقى الخطاب أنه كتبه على ورق دشت مصفر مما يستخدم يوميًّا في الكتابة الصحفية، صدمه ذلك، أراد أن يكون ورقًا أفضل، ولكنه واسى نفسه بأن الورق آخر ما يمكن أن يهتم به عاشق حقيقي، ثم ابتأس عندما أدخل نفسه في زمرة العشاق، هكذا صار عاشقًا مرة واحدة، ومن أول نظرة وخطاب.

يعمل الخيال كثيرًا في هذه الحالات، تخيل أنها بالتأكيد ستسأل عن ذلك الزميل صاحب الأسلوب البليغ، الذي أرسل لها خطاب الإعجاب بما تكتب، ليس بعيدًا أن تقتحم عليه الحجرة، وتتجه إلى مكتبه، وليس إلى مكتب الصحفي الكبير.

على صاحبنا أن يعتني بهندامه يوميًّا، لا يعرف أبدًا متى «تطُب عليه» فجأة، عليه أيضًا أن يكون حليق الذقن، وأن يستعد للامتحان بحفظ كلمتَي شكر ردًّا على شعورها بالامتنان، عليه أن يركز معها ومع نفسه، وليس مع «سيمبسون» و«ديانا» و«سيندي» و«كلاوديا» و«ناعومي».

لم يحدث شيء مما توقعه لعشرة أيام، شك أصلًا في أن الخطاب قد وصل، هيئة البريد غير مضمونة، ابن حزم أفضل كثيرًا، يئس تمامًا.

حتى كان يوم لن ينساه، كان بمفرده في الحجرة وسط أربعة مكاتب خالية، فترة ما بعد الظهيرة، يقاوم النعاس، نصف كوب شاي أمامه، فتحت الباب، سبقها عطرها، في لحظات دخلت يُمنى سعيدة ومبتهجة، بالضبط مثل طفلة في الشارع صباح يوم العيد، جمدته المفاجأة في مكانه، لم يقف ولم يجلس، ظل في وضع غريب، في هيئة أقرب إلى الركوع، يستقبل مثل رجل مخدور لمسة سلامها باليد، تأكدت من اسمه، قالت إنها ممتنة للرسالة، ولإعجابه بما تكتب، قالت إنها سألت عن اسمه صديقها الصحفي الكبير، اندهشت لأنه يعمل معه، أثنى الرجل على مساعده الشاب، وأثنت هي على

أسلوب صاحبنا، سألته في جدية لماذا لا يكتب بدوره، اعتذرت عن تأخرها في شكره، كان الصحفي الكبير مسافرًا، وهي لا تطمئن إلا لرأيه، عاد فعرفت منه اسم صاحب الرسالة، ذلك الذي يكتب خطابًا طويلًا عريضًا ولا يكتب حرفًا مُوقعًا باسمه في الجريدة، هو يحرر فقط شغل الآخرين، وقد يترجم عند اللزوم.

تجمد صاحبنا في مكانه، لا يتذكر: هل كان مهندمًا أم حليقًا أم «مبهدلًا»؟ جمع الزمان فصار لحظة ثقيلة، لذيذة ومقلقة، لم يفتح الله عليه إلا بعبارة واحدة متلجلجة:

ـ أحسنت يا أستاذة، بالتوفيق.

عندما عاد إلى حجرته طائرًا في ذلك اليوم، كان يستعيد صوتها، ولمسة يدها، وكان يلعن الحب، وابن حزم الذي لم يخصص بابًا في «طوق الحمامة» للشكر والامتنان، والرد الفوري على الحبيب، لعن نفسه لأن كلماته البائسة في الرد على امتنانها تليق بموظف في الشهر العقاري وليس بعاشق، لعن نفسه أخيرًا ثم نام. عادت إليه ليلتها الأحلام من جديد.

رأى فيما يرى النائم أن يُمنى صارت نبتة مدهشة، خضراء ومورقة وطويلة وسامقة، تطاول عنان السماء، ورأى نفسه وهو يكتب في ظل النبتة، يرتدي بذلة أنيقة، تشبه بذلة «جيمس بوند» في فيلمه الجديد، الذي شاهده توًّا في سينما «مترو»، أشرقت الشمس ثم غامت، وهو في مكانه يكتب، تغير المنظر، فظهرت يُمنى وهي في سيارتها، لم يعد له وجود، ولكنه سمع موسيقى عذبة لم يسمع مثلها من قبل.

استيقظ من الحلم على ردح متبادل، فتاتان في الحارة الخلفية للبيت تتبادلان بسهولة الخوض في الأعراض، وتصفقان بأيديهما بدافع التجريس والفضح، بعد قليل نصب الشقيقان السيرك، وتبادلا «التجعير»، قال له زميله إن الأمر سينتهي في قسم باب الشعرية من جديد، وإن الضابط سيضرب الشقيقين معًا بعد أن صار يعمل عندهما لا عند وزارة الداخلية، وبعد أن صار لا يجد وقتًا لأي أمر إلا تسجيل محاضرهما اليومية المتبادلة.

لكن الأيام التالية العذبة غذتها أحلام كثيرة، صارت اليوم تعرفه، مرة جاءت بخبر عن معرض لفنانة تشكيلية من صديقاتها، أخذت تصف له جمال لوحات الصديقة، كاد أن يقول لها: «وماذا عن جمالك أنت؟»، أراد أن يقول لها: «يكفي أنك أحضرت الخبر لكي ينشر»، ولكنه لم ينطق بحرف، برافو ابن حزم، فعلًا للمحبوب هيبة، وللعاشق خيبة.

لم يغير حرفًا مما كتبت، للمرة الأولى يرى أصول الكتابة بخطها، أخذ يتأمل الحروف على مهل، وكأنه يتعرف على الأبجدية العربية من أول وجديد، ابتسم الصحفي الكبير عندما شاهد الخبر مبروزًا في إطار، كانت ابتسامة العارفين.

في تلك الفترة الحالمة، وقع أسوأ حدث في حياته، مات والده في الصعيد، لم يكن مجرد أب، كان أقرب أصدقائه ومعلميه، لم يكن يدرك وقتها مدى تأثيره العميق في شخصيته، ظهر ذلك في كتابات متأخرة، لم يخبروه أن والده مات، قالوا إنه مريض، استبعد هو أيضًا أي خطر على حياة رجل يمتلئ بالحياة، وإن كان يبدو منطفئًا في السنوات الأخيرة، في بيت العائلة عرف بخبر الوفاة فانهار في البكاء، عادت الدنيا رمادية، بل سوداء، يهاجمه الاكتئاب، يتذكر سلامها فينزاح عنه السواد، ثم يعود.

عندما عاد إلى الجريدة، جاءت يُمنى لتصافحه وتعزيه كزميل، لم يعرف وقتها هل يفرح أم يحزن، لم يلاحظ أنه ابتسم بدلًا من أن يبدو حزينًا، بدت كما لو كانت مصدومة، اندهشت من ابتسامة لم تتوقعها، كانت تقريبًا مذعورة، ربما ظنت أن الحزن قد أصاب صاحبنا بلوثة مفاجئة، هو أمر وارد ومتوقع ومفهوم في كثير من الحالات.

فترت العلاقة، إذا كان يمكن أن نسميها علاقة، راودته الوساوس، وعاد صامتًا لا تراه الأعين، طيف عابر متأمل ومتفرج، عاد للجلوس من جديد على شاطئ الحياة، لم يقلقه إلا سؤال مفاجئ من صديقه الصحفي الكبير:

ـ قولِّي، إنت بتحب يُمنى؟

أنكر صاحبنا على الفور. لم يعرف لماذا أنكر، مثلما لم يعرف لماذا ابتسم ويُمنى تشاطره الأحزان.

إلى هذه الدرجة كان مكشوفًا؟ كم زميلًا يعرف أيضًا؟ أم أنه الصحفي الكبير فقط؟ لا بد أن الرجل أخبرها فابتعدت، أم أنها ابتعدت قبل أن يخبرها؟ لعلها أحست وفهمت فابتعدت، هواجس وشكوك جديدة، زلزال أسوأ من زلزال أكتوبر، الذي كانت قد مرت عليه عدة شهور.

فكر أخيرًا أن يكتب من جديد، هذه المرة، خطابًا صريحًا، يعترف فيه بحبه لها، يحكي لها كل مشاعره منذ أن رفع عينيه عن الورقة ليراها فصعقه جمالها، في ذلك الصباح البهيج، في تلك الحجرة من الصحيفة القابعة في المهندسين.

فاصل

ما لم يكتبه نديم في روايته

(صورة طبق الأصل من خطاب قديم)

عزيزتي يُمنى

صنعتي الكتابة، وتقولين لي أنت تكتب بشكل جيد بعد أن قرأتِ خطابي الأول، شكرًا جزيلًا، ولكني أعترف بأن هذا الخطاب الجديد هو أصعب ما كتبت في حياتي.

تسبقه قصة، هل لديك وقت؟

سأفترض أنكِ، ولو بدافع الفضول، ستكملين القراءة.

إنها حكاية معرفتي بكِ، هي معرفة تبدو قصيرة، ولكنها عندي عميقة وهامة، سأترك قليلًا ترجمة مغامرات الصحفيين مع أميرة القلوب، وحكايات «أو جي سيمبسون» مع زوجته القتيلة، وعروض أزياء «كلاوديا» و«ناعومي» و«سيندي»، وسأحاول أن أحكي.

لم يكن في ذهني قَطُّ أن أعمل في الصحافة مرة أخرى، بعد أن أُغلقت المكاتب، وأظلمت الدنيا، وتوقفت التعيينات.

سلَّمت بأنني جربت حظي مع الجرائد، ولأحاول مع معشوقة أخرى: السينما.

قراءات ومشاهدات وكتابات وندوات، وحياة على هامش الهامش، حتى جاءت فرصة العمل في جريدة اقتصادية:

ـ ومالي أصلًا بالاقتصاد؟ أنا واحد مفلس، ونجحت بالعافية في المادة دي في الكلية!

قال أصدقائي:

ـ مش هتكتب اقتصاد في الجرنان، إنت هتشتغل في صفحة الناس والمجتمع مع صحفي كبير، أخبار وتقارير وترجمات، وتقعد تتابع الصفحة اليومية حتى ترسل للطبع.

قبلت على مضض، وبدون حماس، وبدأت في مطالعة الجريدة الجديدة: أسهم وبورصات وشركات ومؤسسات وسندات، وقليل من السياسة، صفحة فن يتيمة، ثم صفحتنا الأخيرة، وفي زاوية صغيرة برواز قصير بعنوان «عيون».

قرأت من باب الفضول، يومًا واثنين وثلاثة، أسرتني عبارات رشيقة منتقاة، وعلاقات جديدة بين الأشياء والأفكار، وخيال باذخ وملهِم، كل ذلك في ٥٠٠ كلمة، طاقة حب للحياة والبشر، بعيدًا عن السياسة والفلوس، وتوقيع بحروف صغيرة لا تنسى: «يُمنى».

ظننت جادًّا أن صحفيًّا كبيرًا يكتب تحت اسم مستعار، كما فعل ويفعل الصحفي المعروف في مجلة «صباح الخير»، عندما يوقع تحت اسم «نادية عابد».

سألت صديقًا عن العمود الذي صار اكتشافًا، وأصبح مثار حديث الجميع، إلى درجة أنهم يبدأون به قراءة الجريدة، قال الصديق إن العمود لكاتبة، وإنها لا تتستر تحت اسم مستعار، ويُمنى هو اسمها الأول، وهي زميلة في قسم البورصة.

أدهشني ذلك، ما علاقة البورصة ومؤشرات «داو جونز» و«نيكي» بهذه الكتابة الرائقة المحترفة؟

أدهشني أكثر وجود الاسم كاملًا على موضوعات اقتصادية لم أفهم منها حرفًا، وإن كانت هامة لرجال المال والأعمال والاقتصاد والاستثمار، منها ترجمة لتقرير طويل لكِ عن «الملاءة المالية»، تصورته نوعًا من الأدب الساخر: الملاءة والمال؟!

واظبت على القراءة والإعجاب، حتى كان يوم اقتحمتِ فيه حجرتنا، فتغيرت حياتي إلى الأبد.

هذه أخيرًا يُمنى الكاتبة الرائعة، ولكنها أيضًا امرأة فاتنة، تسبقها ابتسامتها، أنيقة ونشيطة، تفرح مثل طفلة، وتسعد بمن يقرأ ويناقش، نظرت إليكِ يومها في ذهول، توقف الزمن، وبدا المكان فارغًا إلا منكِ، هذا الإعجاب الهائم في الهواء وجد صاحبته، مثل كلمات وجدت لحنها، أو كأضواء تشكلت فأصبحت صورة.

لحظة عجيبة وغريبة، كان يمكن أن أشارك الصحفي الكبير عبارات الإعجاب بزاوية «عيون»، ولكني لم أجد كلامًا، ولم أجد نفسي، كنت قد خرجت من سيطرة الجاذبية الأرضية، لأحلق مثل مخلوقات «مارك شاجال».

لا أستطيع أن أحدد هنا هل كان ذلك افتتانًا بالعثور أخيرًا على الكاتبة التي أحب ما تكتب؟ أم افتتانًا بالعثور على الإنسانة نفسها؟ أو ربما تطابقت الكتابة مع الإنسانة، فكأن هذا النص اليومي لم يكن ليخرج إلا من زائرة الحجرة المبتسمة، بخلاف ذلك يصبح هناك خلل في المنطق، في معنى الكون وآليته، وفي قوانينه الغامضة.

أمضيت أوقاتًا كثيرة حائرًا، غير قادر على تقديم الإعجاب بشكل مباشر، لو حاولت ستضيع الكلمات، وسأبدو مثل تلميذ يتلجلج أمام السبورة، سيكون تعارفًا بائسًا مثل حياتي في تلك الأيام.

هنا ظهرت على الفور فكرة إرسال خطابي الأول.

لم أفكر قَطّ في النتائج، ولا حتى في افتراض عدم وصول الخطاب إليكِ.

كنت سعيدًا بكتابة حرة سلسة، ولا أعرف كيف كتبني القلم بهذه الطريقة، ولا أعرف كيف طلبت منكِ في الخطاب أن نتراسل إذا كنت تريدين أن تعرفي شيئًا عن القصة القصيرة والأقصوصة.

كانت زاوية «عيون» أقاصيص مدهشة، وكنت صادقًا في الحرص على أن تواصلي السرد بلا توقف، وأن تكتشفي آفاقًا أوسع في موهبة عظيمة كامنة.

لم أتوقع شيئًا، ولكني كنت منتشيًا بالكتابة إليكِ، بقهر عجزي ويأسي، بإلقاء حجر في بركة آسنة، استرحت لأني فعلت وقلت وعبَّرت، لم أكن لأسامح نفسي قَطُّ لو لم أفعل.

يمكنك أن تتخيلي إذن أن اقتحامك الحجرة عليَّ في المرة الثانية كان فعلًا معجزة خارقة، في نظر شخص كان أصلًا قد نسي أن أحدًا يراه في المكان، وقنع بالكتابة والترجمة وإصلاح اعوجاج كتابات الآخرين.

ظل يعيش على هامش الجريدة والحياة، على شاطئها حرفيًّا، يتأمل ولا يشارك، ويعرف البشر من حروفهم وكتبهم، أكثر مما يعرفهم من أصواتهم وصورهم وحضورهم الجسدي.

يطارده حلم على فترات متباعدة: فجأة ترك الشاطئ، وقفز في محيط أزرق بلا نهاية، كان يغرق بكل تأكيد، لأنه لا يعرف العوم، ولكنه، يا للعجب، كان سعيدًا ومبتسمًا!

حتى عندما ابتلعته أمواج المحيط العالية، ترك على صفحتها ابتسامته.

حتى عندما أستيقظ من هذا الحلم، كنت أستيقظ سعيدًا مبتسمًا، ولكنها قَطُّ لم تكن ابتسامة بمثل حلاوة ابتسامتك، وأنتِ تسألينني عن اسمي بصوتك العذب، ثم تشكرين كلماتي في خطابي، ثم تضحكين وتقولين في مكر إنكِ لا تعرفين المراسلة، ولا تفضلين التواصل عبر الكلمات المكتوبة، نحن زملاء، نعم زملاء، ويمكن أن تبلغني، هكذا قلتِ، بملاحظاتك وتعليقاتك، ويمكننا أن نتكلم في أوقات الراحة عن القصة القصيرة والرواية والأقصوصة أيضًا.

لا أتذكر فعلًا ماذا قلت ردًّا على كلماتك، ولا ماذا كان يجب أن أقول فلم أقل، ولكن عبارة «زملاء» كُتبت لحظتها أمامي بحروف تضيئها لمبات النيون الخضراء، تخيلتها لحظتها مثل لوحة ضخمة تفنن في كتابتها خضير البورسعيدي بخط الثلث، وأفرغ فيها جمالًا وحرفة اختزنهما طوال عمره.

نسيت حقًّا (عذرًا) أن الزملاء لا يحتاجون إلى مراسيل، كنت وقتها قادمًا من الخمسينيات، بينما ألمحك في كل يوم تتعاملين مع كائن حديث لا أعرفه اسمه «الكمبيوتر».

كل يوم تعبرين أمام حجرتي، التي أحرص على أن أترك بابها مفتوحًا، لكي تدخلي على الشبكة المعلوماتية، وكنت وقتها لا أعرف سوى شبكات المياه والكهرباء والتلفونات الأرضية، ثم تعودين بجداول مترجمة عن البورصات العالمية، وحركتَي البيع والشراء.

لا علاقة بين هذا الطيف الذي أراه وتلك الجداول والأرقام، كنت تشعرين بملل المهنة، وجفاف الأرقام، وتكتبين عن أجنحة تحلمين أن تأخذك بعيدًا (مثل شخصيات «شاجال» من جديد) عن المؤسسة التي تعملين فيها، كنت كاتبة أُلقي بها في بنك أو مكتب صرافة.

قنعت بأن أعبر إليكِ، بهدوء وعلى مهلٍ على جسر الزمالة، وصولًا إلى شارع الصداقة، ولكن يوم أن شاطرتني الأحزان لوفاة أبي، لم أعرف بالضبط هل أسعد أم أحزن.

كانت على وجهي نظرة بلهاء مرسومة عليها ابتسامة، لا أنسى الارتباك الذي أحسست أنتِ به، ربما ظننتِ أن رجل الخطاب الغامض قد أصابته لوثة بسبب حزنه العميق، وأنه ربما يصلح أن يكون موضوعًا لقصة أو رواية.

لم أنسَ خجلي بعد أن تذكرت ابتسامتي، لم أستمتع بفيلم واحد مما شاهدت يومها في مهرجان القاهرة السينمائي.

ذهبت زائغ العينين إلى قصر المؤتمرات في مدينة نصر، بدت الشاشة غائمة، و«فيكتوريا أبريل» ضبابية، خمنت أن الزمالة قد تعثرت في صخرة كبيرة، وأنها عادت من جديد معرفة عابرة.

لكني لم أتوقف قَطُّ عن قراءة «عيون»، وتسجيل ملاحظات وأسئلة.

قنعت فقط بمرورك العابر.

أراك طيفًا سريعًا من باب مفتوح، أو أمر سريعًا إلى باب الخروج بينما تنهمكين في الكتابة.

حياة عابرة على حافة مفتوحة على هاوية.

حتى كان يوم لم تظهري فيه أنتِ في الجريدة، غياب استمر لأسبوع، سألت بعد تردد، عرفت بمرض طارئ أصابك.

يضحك الصحفي الكبير، الذي صار صديقي، وهو يصف حالتي وقتها بأنه تصور أنني المريض لا أنتِ: عرق ورعشة ولجلجة وقلق، دفعه ذلك إلى أن يمنحني رقم تلفونك لأتحدث معكِ، وأطمئن عليكِ.

جاءني صوتك عاديًّا، كنت ممتنة، وكنت تائهًا، لعلي سمعت ضحكة منكِ بسبب ارتباكي، ولهفة السؤال، وحرارة المشاعر.

استعدت بعد المكالمة ثباتي فوق الأرض، عدنا زملاء مرة أخرى.

ولكنك لم تعودي قَطُّ إلى المكان نفسه، انتقل القسم كله إلى مكان آخر بعيد، زملاء ولكن عن بُعد، وكان ذلك سبب كتابة خطابي الثاني.

أكتبه لأقول إنني أحببتك، وإن كل هذه الفوضى السابقة، كل هذا الضباب الذي أعيش فيه، سببه أنني لم أقل لكِ إنني أحبكِ، وأن الإنسانة والكاتبة صارتا الآن عندي شيئًا واحدًا.

وللمرة الثانية لا أتوقع ردًّا، ولا أنتظر جوابًا، مثلما تعودت دائمًا، ولكن تكفيني دومًا سعادة البوح، والانتصار على العجز، والثبات بعد الواقعة، تمامًا مثل شعورنا عندما نجونا من زلزال أكتوبر المدمر.

لا أعتذر عن مشاعر صادقة، بل أشعر بالفخر، ولا تُلزمك محبتي بشيء، ولا بحقوق الزمالة، ولا بعبارات تطييب الخواطر، ولا حتى بلحظة قلق أو ارتباك.

«العيون» التي تخصني قرأت ما في داخلي، فكتبَت وعبَّرت، سيظل إعجابي بما كتبتِ وتكتبين قويًّا ومستمرًّا، وإيماني بموهبتك بلا ضفاف، كنت صادقًا في رأيي، وصادقًا في الاعتراف بأنني أحببتكِ.

لست متأكدًا أيضًا من وصول خطابي إليكِ، فقد تنتقلين مع زملائك إلى مكان ثالث، وقد تتركين الجريدة كلها، ولكني سأرسل الخطاب كما فعلت من قبل، وسأوقعه باسمي كما فعلت، وسأضعه في الصندوق الكبير، وعليه طوابعه الملونة.

ذلك الكاتب القادم من الخمسينيات سيظل كذلك، سيظل كائن الكمبيوتر غامضًا بالنسبة إليه، لا توجد لديه طريقة أخرى يعرفها، ولكنه يملك مشاعر صادقة، وفي داخله سحر يؤرقه ويربكه، ولكنه يحب هذا السحر، لا ينسى حلاوته، ويريد أن يحتفظ به.

ويحلم دومًا بأنه يبتسم عندما يغرق في أمواج المحيط.

نديم الذي في صفحة الناس والمجتمع

تدهشني قدرتك على المراوغة، لم أعد أفهمك، ولم أعد أعرف حدود الواقع والخيال، أرهقتني حكاياتك، ولكني أعرف روح السخرية التي تتسلل بين سطور حكاية يُمنى، بعكس روح الجدية التي سردت بها بداية حكاية حبيبة.

هذه السخرية ليست بريئة، أتذكر طريقتك المعتادة في الهروب، تريد أن تقول إن حكاية يُمنى صادقة، ولكنها كانت قصة مراهقة، عملية اكتشاف، تسخر من مشاعرك ومن هيئتك وتصرفاتك، تتمنى لو ظلت قصة هامشية، لأن حبيبة ابتلعت يُمنى، ولكني أعرف أن ذلك لم يحدث قَطُّ، لن تستطيع أن تشرح مع ذلك كيف قادت الحكاية الأولى إلى الثانية، وكيف كانت الحكاية الثانية الأكثر ألمًا ووجعًا، على الرغم من تشابهها مع الأولى.

لا ليس السن، ولكنها حرفة الكتابة، وصنعة الحكي، وفن السرد، الطبقة الأعمق من المشاعر تتحدث، والذاكرة تنتقي وتختار، ولكن تفلت عبارات من هنا وهناك. يُمنى هي القصة التي صنعت أصل كل شيء، ربما حلمت بأنثى بديلة، ما يحيرني حقًّا أن حبيبة هي معكوس يُمنى في الأمور كلها، شكلًا ومضمونًا، أنت تحيرني معك، تحب من جديد، وبعمق، فتاة مختلفة عن الأولى، أبحث عن قانون ورابط ومعنى فلا أجد.

لست حمارًا كما تقول، ولكن هذه الحكاية تحتاج إلى فكرة ومعنى، لا يمكن أن نروي ببساطة لمجرد أنها حدثت فعلًا على هذا النحو، لا يمكن أن نروي وكفى، لو لم أفهم لَمُت، ولو لم أعمل وأصنع خيوطًا لما كان العالم، هي حقًّا خيوط واهية مثل خيوط العنكبوت، ولكنها تكفي لكي تقف أقدامنا على الأرض، ثم يأتي الحب ليهدم لنا كل ما بنيناه، نعود معلقين في هواء الشكوك والريبة والعبث واللامعنى، أحدهم هناك يعبث في أزرار عواطفنا، يجعلنا مجانين وغير منضبطين، ولكننا سعداء سعادة الحمقى والمخابيل، أحدهم يسخر من سيناريوهات تخيلناها، يتركنا نحلم في لذة وسعادة، ويوقظنا على كابوس، أحدهم لا يريدنا أن نكون سعداء، «كيوبيد» طفل غرير، ونحن لا نملك دفعًا لأسهمه الطائشة.

ليست هذه يُمنى التي كتبت، ولا هذه الطريقة الساخرة هي التي عشت بها التجربة، كانت تجربة شاقة وصعبة، ربما تكون هناك بهجة داخلية، ولكنك كنت يومها تائهًا مهمومًا معظم الوقت، نسيت أيضًا أن لقاءاتكما في العمل كانت معدودة، إلى الدرجة التي تبدو فيها يُمنى وقتها صنيعة الخيال والأمنية، مع خطوط صغيرة تختفي وراء ضباب كثيف.

أنت أحببتها، وأحببت الحب واكتشاف السعادة، أعجبتك تمامًا باعتبارها نقيضًا مدهشًا لك، نورًا لامعًا في نهاية النفق، هذا ما أعجبك، ولكنه لا يكفي لكي يجعلك تحبها.

عدت ذلك المساء إلى البيت، وكتبت لها خطاب اعتراف بالحب، مرة أخرى لم تنتبه إلى أنك تكتب على ورق دشت رخيص، كتبت في نفس واحد على الورق الصغير الكئيب، حكيت كل تفاصيل الإعجاب الذي صار حبًّا، أو الحب المتستر وراء الإعجاب بما تكتب، لم تتوقف، ولم تشطب حرفًا، واندهشت لأنك لم تلاحظ في نهاية الكتابة أن صديقًا لك يقرأ في هدوء على سرير مجاور في الغرفة نفسها.

نسيت أيضًا وأنت تسرد أن دافع الكتابة والاعتراف في الخطاب الطويل هو انتقالها مع زملاء وزميلات إلى مكان آخر، لم تعودا في المكان نفسه، وإن ظلت معك في الصحيفة نفسها، لم تعد تراها عابرًا في الذهاب والإياب، صارت شبحًا وظلًّا في الخيال، لم تعد تمشي واثقة الخطوة، تثرثر بصوتها العالي، أطلقت على ابتعادها الأخير تعبير «الخروج الأخير».

خطاب مثل إبراء الذمة، لا هو خطاب مَن برَّح به الهوى ولا من صار مغامرًا لا يخشى الاعتراف، خطاب غريق لا يخاف من البلل، تعودت على الحديث عن بُعد، تعودت على الوقوف على الشاطئ، الحياة لوحة تتأملها، ولكنك لا تعيشها ولا ترسمها، خرجت شحنة الوجد وفورة القلق، أغلقت المظروف على الدشت، ثم ألقيت به إلى الصندوق، بدا الصندوق مثل تابوت الموتى، بجانبه مئات الزفرات والأنَّات والاعترافات والخطابات المكتوبة.

«يصل ويسلَّم»، في الغالب لم يصل ولم يسلم، أو قد يكون وصل، ولكنها تركت الجريدة إلى مكان آخر، فلم يسلم إليها، بعد سنوات طويلة عرفت أنها فعلًا تركت الجريدة للعمل في مكان آخر، لا أعرف ما الذي كنت تنتظره، معجزة تحقق الحب، وأخرى ترد الغائبة، وثالثة تجعلها تتصل بك، ربما من الأفضل أنها لم تقرأ، وقد تكون قرأت واندهشت وابتسمت، مثل دهشتها من ابتسامتك البلهاء وهي تشاطرك الأحزان.

كان حبًّا عميقًا على الرغم من سذاجة التعبير عنه، تريد أن تختص حبيبة بكل المشاعر، ولكن ذاكرتك ظلت لسنوات تحتفظ ببقايا حكاية يُمنى: هذه اليد صافحتها، وهذه العين شاهدتها، وهذا الأنف توضأ بعطرها، وهذه الممثلة في «آيس كريم في جليم»، اسمها جيهان فاضل، ربما كان اسمها الأصلي يُمنى فاضل، يخمن الوهم أنها يُمنى، الشبه خارق وغريب صوتًا وصورة، ربما تكون يُمنى قد اعتزلت الكتابة واختارت التمثيل.

عشت في ظل الذاكرة سنوات طويلة، يُمنى أول امرأة أحببتها بصدق، وتمنيت أن تتزوجها، كنت تقول إن قرار الزواج في ظروف جيلنا البائسة، حيث لا عمل ولا معنى ولا مستقبل، يحتاج أن يكون الإنسان في حالة غير طبيعية عند اتخاذ قرار الزواج، فإما أن يكون مخمورًا أو مخدرًا أو عاشقًا، والعشق فيه سكر وخدر مضاعف، لا يهم ما سيحدث عندما تستيقظ من النشوة، المهم أن العشق هو العذر الوحيد لكي تتزوج، أن تأخذ القرار بالغرق الشامل، بدلًا من الوقوف على الشاطئ، وبعد ذلك لا ضمانة لأي شيء، لا ضمانة للسعادة أو للحياة نفسها، كلها مقامرات متتالية، لا نرسو فيها على بر.

بعد سنوات طويلة ستلمح امرأة مثل يُمنى في وسط البلد، ترتدي بذلة سوداء، تجاعيد فوق الجبهة وأسفل العينين، تحمل في يدها شنطة بلاستيكية سوداء، تشك أنها هي بعد أن تتجاوزها مهرولًا، تريد أن تعود، هذه النظرة لا تتكرر، في الغالب كانت هي، بعد سنوات أخرى ستعرف أن عملها الجديد كان في وسط البلد، أرادت بالتأكيد أن تتبضع بعد ساعات العمل.

تبهت الصورة، ولكنها أبدًا لا تزول، تشغلني بها صباح مساء، تشوَّشَت مثلك بحكم الزمن، ولكني لا أتذكر يومًا مر عليك لم تظهر صورتها وتختفي على شاشة عقلك وذاكرتك ووعيك، تآكلت حواف الصورة، هي تكبر أيضًا، ولكنك لا ترى إلا طيفها يوم اللقاء الأول، تتنهد وأنت تهتف: «قولي لطيفكِ ينثني عن مضجعي عند الرقاد».

لا تحتاج إلى دليل جديد أيها الساخر، لتعترف بهذا الحب العميق، أكثر من أن أُذكرك بأن أول اسم بحثت عنه كان اسمها عندما انضممت إلى مجتمع فيسبوك، بعد ١٨ عامًا من لقائكما الأول في الجريدة القابعة في المهندسين، لحسن الحظ احتفظت لك بالاسم الثلاثي في بيت الذاكرة.

طرقت مفاتيح الكيبورد، وأيقونة البحث، فظهرت على فيسبوك عشرات الأسماء المشابهة، جميلات كلهن ولكن صغيرات، يُمنى أكبر اليوم بـ١٨ عامًا، يكفي أن ترى عينيها حتى تعرفها، قد تنشر أيضًا صورًا وهي في مرحلة أصغر، تتشكك أنها داخل البلد، وقد تكون أيضًا من أعداء فيسبوك.

تبحث بلا كلل، تفرز بلا تعب، تنسى ثم تتذكر، أخيرًا يظهر حساب بالاسم نفسه مكتوبًا بالحروف الإنجليزية، أعلاه صورة لامرأة ترتدي زي فارسة، تقترب لتنظر، هي يُمنى وقد تركت شعرها حرًّا ناعمًا، يبدو الحصان راضيًا وسعيدًا، وكيف لا يكون؟

تفرح مثل طفل حصل فورًا على لعبته، تبعث لها على الخاص بعبارات قصيرة:

أنا فلان زميلك في الجريدة التي كنتِ تعملين بها، ما زلت أتذكر كل ما تكتبين، تسعدني صداقتك.

أيام تمر بدون رد، تبدو الصفحة وهمية، أو غابت صاحبتها، تنسى وتيأس، لعبة جديدة: في عز اليأس، يظهر طلب صداقة باسمها، لا تصدق، توافق بضغطة عنيفة على لوحة المفاتيح، وكأنك تريد استعادة الزمن كله، المكان والحالة والرائحة والابتسامة ولمسة اليد، حتى طعم الخيبة والخذلان والحيرة واللون الرمادي، تتمنى أن يعود كل ذلك من جديد، بضغطة واحدة.

على الخاص ردت في عبارات تلغرافية:

أهلًا بك، مبسوطة إنك فاكر ما كنت أكتبه.

من الواضح أنها لا تتذكرك أصلًا، لا يهم، لقد عادت ومعها عادت ألوان الحياة.

تغمرها تعليقاتك على كل ما تكتب، وتعلق هي على بوستات كثيرة لك، هي تكتب الآن في جريدة أخرى، ولكن من زوايا جديدة ذكية، ما تزال حالمة، ولكن يبدو أنها مثقلة أيضًا بالتجارب والخيبات، ستعرف فيما بعد أنها تزوجت وانفصلت للمرة الثانية، وأنها لم تعد تفكر في تكرار الزواج.

تقنع بالصداقة وأنت تعرف أنك عاشق، هي تعرفك أكثر، وتحب ما تكتب، ولكن لا جديد، ترشح لها كتبًا للقراءة، تحدثها عن روايات «ثيلا» الإسباني، تبدي شغفًا لقراءة أعماله، تحدثها عن ترجمات جديدة لها، تطلب أن تراها في الأميريكين، قريبًا من عملها، لكي تعطيها الترجمات، وتدردش معها على فنجان قهوة، توافق.

تعيش ليلة هانئة ملونة، لقاء بعد سنوات طويلة، يمكن الحديث أخيرًا بشكل أفضل، لم نعد كما كنا، ولكن لا بأس أبدًا من المحاولة، لا تستمر السعادة طويلًا، في المساء على الخاص:

معلش مش هاقدر آجي بكرة، الجو تلج، متكلفتة بالبطانية في السرير، هادور على الترجمات الجديدة ع النت.

تسب وتلعن النت والتكنولوجيا والعالم «الزفت» الافتراضي، الذي يجعل الناس معًا، ولكنهم في الحقيقة ليسوا معًا.

تلعن البرد والصقيع والرياح الشمالية والقطبين الشمالي والجنوبي، تلعن «ثيلا» الذي وضعوا مترجماته على النت لكي تجدها يُمنى فلا تأتي، ولا تقابلها في الأميريكين.

ذات صباح تبلغك أنها تكتب موضوعًا سياسيًّا، وتبحث عن مصادر غير تقليدية، تبلغها باقتراحاتك في سعادة، في مناسبة تالية تشكو لأنها تعودت على الكتابة في مساحة محدودة، وعدد كلمات ثابت، صارت لا تفكر إلا في هذا الحيز، تقدم لها تدريبات على تطوير الفكرة وتعميقها، وفي مناسبة ثالثة أرسلت لك مشروع رواية كاملة، عملًا أولًا لا يخلو من أفكار لامعة، ولكنك تقترح تعديلات كثيرة، تتحاوران طويلًا على الخاص، تسعد بالمشاركة أنت وهي، كانت أيضًا عقلًا جميلًا، حرة ومستقلة ومؤرقة بالبحث والاكتشاف، ذكية الفؤاد مثل حبيبة.

يمر كالمعتاد وقت طويل، تقع ثورة كاملة بكل تداعياتها واضطراباتها، تقتربان كثيرًا، وتتشاركان حلم التغيير، ومعاناة المخاض، وآلام الفوضى، تبدو على أقصى اليسار، تشتعل غضبًا وجسارة، تكتب عن قنابل الغاز، وأحلام الميدان، وتتذكر منشورات هربتها إلى زملاء الجامعة، فعرفت للمرة الأولى معنى التمرد، ولذة الخطر والمغامرة، تتحقق بالثورة، مثلما تحققت منذ سنوات بالكتابة.

تمر فترة قبل أن تلتقيا للمرة الأولى، يدق قلبك وأنت في الطريق إلى ندوة تستضيف الكاتب الكبير الذي تحبه أنت، وتحبه هي، تريد أن تلمح في عينيها عنوان اهتمام، ونظرة سعادة، كانت فعلًا كذلك، عندما صافحتها كانت لمسة الأمس تمنحك بهجة حاضرة، لمستان بينهما ١٨ عامًا صارتا لمسة واحدة طويلة، بدون قطع أو فواصل.

تتألق هي في الأبيض على الرغم من تجاعيد الزمن، تجلسان متجاورَين، تضحك هي من التعليقات، ولكنها تمل فجأة، تقوم بلا مقدمات، وبدون مصافحة تغادر الندوة، فيهاجمك الخواء، يُمنى تهتم ولكن لا أثر للحب، ولا للذاكرة القديمة، صرت شخصًا جديدًا تعرفه من فيسبوك، لطيفًا ومثقفًا و«صديق جدع»، لا أكثر.

تعود ماشيًا إلى البيت، حزينًا لا تسمع حتى أصوات السيارات، يُمنى أصبحت شخصية أخرى لا تعرفها، الماضي لا وجود له إلا في ذاكرتك أنت، أبدًا لا تستسلم، حكاياتك طويلة ومرهقة، تستهلك كل المحاولات قبل أن تغلق الباب، كمن يعرف بوجود كنز فلا يتوقف عن الحفر، مهما كانت المتاعب، ودائمًا لا يجد ما يبحث عنه، ولا يصل إلى نتيجة.

تواصل آخر، وتعليقات لا تتوقف، ومناقشات في السياسة على الخاص، يبهجك أن تضع لايك عندما تكتب أنت: «الحب مفتاح الفرح».

يبهجك حضورها كله، عندما تسافر أو تغيب لا تبدو الصفحات والكلمات واضحة، تصبح الكتابة عقابًا، والتعليقات تافهة، والصور غائمة.

لا بأس من محاولة أخرى للقاء، قبل أن تسافر يُمنى في رحلات طويلة، في مهام عمل، تكتب لها مقترِحًا لقاءً آخر:

على فكرة، لو ما جيتيش هتلاقيني عندك في فرنسا اللي مسافراها بكرة، أنا مجنون واعملها.

تبعث إليك إيموجي ابتسامة.

كنت قد كتبت عبارة واضحة عن حالة حب تعيشها، فجأة وجدت تعليقًا محبطًا منها على الخاص:

أزغرط ولا إيه؟ قولّي على طول مين هيَّ؟

ذهلت يومها ولم تستطع أن تعلق، لم تستطع أن تقول أنتِ مَن أُحب. ليس معقولًا ألا تصل مشاعرك إلى الآخرين على هذا النحو! إذا لم تصل على الرغم من كل ما فعلت، وعلى الرغم من اهتمامك اللافت، فلن تصل أبدًا.

مع ذلك طلبت اللقاء في كافيتريا الهناجر، فجاءت بعد تهديد عبثي منك أن تجدك أمامها في فرنسا.

بين شنطة كتب، وخذلان مبين، وبعض الجرأة القادمة من ألم لا يحتمل، أخذتما تثرثران في كل شيء، لم تسأل عن حكايتك، فبدأت أنت تلمح إلى حكايات وتفاصيل قديمة، تسألها مندهشًا:

هيَّ الواحدة فعلًا ممكن ما تعرفش إذا كان فيه حد بيحبها أم لا؟

تتجاهل يُمنى الرد، تقول إن الرجل يصبح أكثر غضبًا من فكرة ألا تحبه امرأة بعينها، حوار عبثي تمامًا.

تنفجران فجأة في ضحك صاخب، يلفت أنظار الحاضرين، لقد اكتشفتما أنكما تشاركان في مسرحية هزلية، تتراجع أنت عن فكرة أن تعترف لها بحبك، كنت متأكدًا أنها تعرف مشاعرك، ولكنها جاءت لكي تحاول أن تجعلك لا تقولها، لا تريد أن تفقدك كصديق، وعليك أن تتقبل ذلك، تشكرك على الكتب الكثيرة التي أحضرتها، تسعد بالعناوين، تتحدث بامتنان صادق، ولكن هناك شيئًا غامضًا، يستعصي على الفهم.

تخرج من الأوبرا وأنت متأكد أن امرأة عاشقة ورجلًا عاشقًا لا يحتاجان أبدًا إلى كلمات، هناك مشكلة مؤكدة، يُمنى لا تريد حبيبًا، ولكنها تريد صديقًا، تحبك وتحترمك ولكن كصديق.

تحاول دائمًا في الحكايتين أن تلعب دور الصديق، بديلًا عن دور العاشق، فلا تفلح أبدًا، مشاعرك تفضحك، صوتك وتعليقاتك، عواطفك صريحة كالشمس، ومع ذلك فلا بأس من محاولة أن تكون صديقًا.

تدعوها بالإنجليزية على الخاص لمشاهدة فيلم هام وجديد في سينما «جالاكسي»، لا ترد على الإطلاق، في اليوم التالي تصعقك صورة على صفحتها، تكتب بالإنجليزية إنها محرجة للغاية، فقد أحبت وتزوجت، بجوارها رجل مألوف الوجه، حليق الشعر، وأنيق للغاية، يضع يده على كتفها، سعادتهما غامرة.

هناك من يعبث، العتب على «كيوبيد» اللعين، تكتب عبارات التهنئة بطريقة آلية في خانة التعليقات، الآن هذا درس جديد طازج: عندما تحب المرأة فلن ترى رجلًا آخر، مهما حاول أو فعل، ولكنها أبدًا لم تقل لك إنها في حالة حب أو ستتزوج.

أنت لا يمكن أيضًا أن تكون صديقًا، نهاية، ستارًا، لن تعمل لها بلوك مثل حبيبة، ولكن ستكتب يوميات واعترافات وفضفضة، تقتبس أجزاء من كتاب أحمد رجب «يخرب بيت الحب»، فتعلق هي:

لا مش موافقة، الحب جميل، الناس هيَّ اللي غلط.

تحافظ يُمنى لفترة طويلة على تعليقات متفرقة على ما تكتب، بينما تعود أنت إلى الشاطئ.

في أعياد ميلادك تكرر يُمنى التهنئة بالكلمات نفسها:

كل سنة وانت طيب وتحقق كل أحلامك.

معذورة، لا تعرف كثيرًا عن أحلامك، «كلام ولد عم حديت» كما يقول الصعايدة.

أزعجتُك بالسرد بدلًا منك؟ هه؟

لا تسخر أرجوك وأنت تكتب، كان حبًّا، حكاية جادة على الرغم من صخب الضحك في الأوبرا، أستغرب أنني أعتقد أيضًا أن حكايتك مع حبيبة كانت جادة وحزينة، أكان لا بد أن ترفع البلوك بعد بكاء ليلة كازينو قصر النيل؟

٥

بعد أسبوع تقريبًا تراجع عن قرار استمرار البلوك لصفحة حبيبة، لا يعرف بالضبط سر التراجع، ولكنه عاش أسبوعًا قلِقًا ومنزعجًا، ظن أنه استراح من الحكاية، ولكنها ألحت عليه، راودته هواجس عديدة، لحظة الغضب لم يلتفت إلى مسألة بكاء حبيبة، إلى مشوارها بالتاكسي عائدة مخذولة، إلى دهشتها لأنه غادر بدون أن ينتظر قليلًا.

ولكن بعد ساعات كان يلوم نفسه بشدة، تذكر ما قاله عمر الشريف في فيلم «روك القصبة»: «لا تجعلوا امرأة وحيدة تبكي».

نشر العبارة وصورة عمر في الفيلم، أحس أنها موجهة إليها، كلما تذكر أنها استهانت بالموعد يتردد في إعادة التواصل، ثم يلوم نفسه في المساء، حسم الأمر أخيرًا، ألغى البلوك، وكتب إلى حبيبة مؤكدًا أنه لم يقم بهذا التصرف من قبل، وأنه فعلًا حزين بسبب ما حدث.

يوم الجمعة صباحًا، كان يستقبل رسالة طويلة منها، أدهشته تلقائيتها من جديد، كانت تعتذر، تقول إنه ظهر لها بالأمس في الحلم، وإنها مرت وتمر بظروف صعبة، وإنها تحترمه، ولم تقصد قَطُّ الإساءة إليه.

في هذه اللحظة بالذات، ربما تحول الفضول إلى تعاطف كامل، تذكر أن هذه الفتاة الرائعة تعيش بمفردها في القاهرة، وتسافر يوم الخميس إلى عائلتها في الزقازيق، تعمل في شركة بدون عقد، تصرف على نفسها، ولا تتوقف عن النشاط الرياضي، ولا عن جمع الأموال للأعمال الخيرية، طموحة ومستقلة، ولا تريد أن تعود إلى نقطة الصفر.

رأى فيها نفسه أيام الغربة، ولكنها أقوى وأفضل، تمر بها لحظات حزن وأرق، تبكي أحيانًا بلا سبب، ولكنها مختلفة جدًّا عمن عرفهن، ما تزال نموذجًا فريدًا يستحق المساندة.

اتهم نفسه بأنه صار قاسي القلب، لم يعد يحتمل أحدًا بعد حكاية يُمنى.

تذكر رباعية لصلاح جاهين، فابتسم:

قلبي رميته وجبت غيره حجر

داب الحجر ورجعت قلبي رقيق

كتب ردًّا طويلًا يبدي فيه إعجابه اللامحدود بحبيبة، ومساندته لها، توقع ألا ترد عليه على الإطلاق، ولكنه وجدها تشعر بالأسف والذنب، كتبت في اليوم نفسه على صفحتها، تصفه بأنه «إنسان ذوق

جدًّا»، وبأنه لم يرِد قَطّ أن يجرحها، تعليقات كثيرة سألتها عن هوية من تقصد، لم تذكر اسمه، قالت لإحداهن:

ده كان زعلان أوي، باقولك عمِّلي بلوك يا بنتي.

عندما عادت حبيبة إلى صفحته يوم أن عادت باكية، وجدت بوستًا عن احترام المواعيد، عن المخرج محمد خان الذي كانت مواعيده مع صاحبنا بالدقيقة والثانية، عن احترام المواعيد كمؤشر على احترام الناس، عن محمد خان مرة أخرى، الذي تأخر المخرج عاطف الطيب يومًا عن موعد معه، فقال له خان: «الحالتان الوحيدتان اللتان أقبل فيهما ألا يحضر شخص في موعده: أن يكون قد مات، أو يكون قد ذهب لمقابلة واحدة حلوة، وأنت يا عاطف بخير والحمد لله، أما البنات الحلوة فتهرب منا منذ تجاوزنا سن الشباب، ولذلك لا عذر لديك للتأخير».

لم يذكرها صاحبنا قَطُّ في تعليق، كتب عن الحكاية كقضية عامة، ولكن واقعيًّا، أصبحت حبيبة في مركز الاهتمام، ولم تخرج منه قَطُّ بعد ذلك.

كان الأمر تغيرًا عجيبًا؛ من كآبة ما بعد زواج يُمنى إلى طاقة نور، اهتمام جديد حذر بفتاة لا يعني لديه أكثر من أنه ما زال على قيد الحياة، بعد أن ظن أن أشياء كثيرة قد ماتت ولن تعود، ولكن كل شيء حول حبيبة كان مؤجلًا حتى يتحقق الموعد الذي لم يتم.

بعد أيام قليلة كانا يرتبان موعدًا جديدًا، وفي المكان نفسه، كازينو قصر النيل، هذه المرة كانت تتابعه على الواتس آب خطوة بخطوة، وفي السابعة مساء رآها للمرة الأولى.

جاءت ومعها عاصفة من الحيوية والحماس، سمراء نحيفة، تسبقها ابتسامة ساحرة، وتخطر في مشيتها بالكعب العالي، الذي جعلها أكثر رشاقة، مثل غزال متعاجب.

قليل جدًّا من أحمر الشفاه، حتى كأنه غير موجود، وكحل يحيط بعينين بنيتين تشعان ذكاء، لفتت نظره هالات سوداء بسيطة تحت العينين، مسهدة أو مؤرقة أو متعبة، أما صوتها فمرتفع، مميز وله جرس غريب، وعندما تكلمت كانت تشع حضورًا وجمالًا.

تختار دومًا حجابًا أصفر أو أحمر اللون، ليصنع مع بشرتها السمراء أنشودة مرسومة، جريئة ومبادرة ومدهشة في كل لفتة أو حركة، وعلى الفور قالت، وكأنها تصافح شخصًا تعرفه:

ـ أخيرًا اتقابلنا، مبسوطة أوي والله.

لطالما أسرته وستأسره هذه البساطة، تلك السمراء تستحق حضورها وحب الناس لها، أخذت تحكي له على الفور عن أنشطتها الاجتماعية والرياضية في الزقازيق، عن أسرتها وإخوتها، عن معاناة

تعلم ركوب الدراجة، ولكنها صارت محترفة اليوم، سألته فيما بعد ذات مرة، على الخاص، عما إذا كانت هناك وسيلة لربط الدراجة بالقفل والجنزير إذا جاءت بها إلى الأوبرا.

لو لم يرَ هذا النموذج البديع ما صدق وجوده، ريفية متمدينة وطموحة، تريد أن تعرف وتقرأ، فرحت جدًّا بكتبه التي حملها معه، أصرت مثل بنوتة شقية على أن يوقع لها ولو على كتاب واحد، وقع لها على كل الكتب سعيدًا منتشيًا.

لا يدري لماذا سألها بصراحة عن تجربة زواجها، وترك لها حرية الرد أو الرفض، ضحكت وقالت:

ـ شوف، الجواز كويس، وأنا اتجوزت عن حب، بس ما حصلش نصيب.

كانت سعيدة بوصولها في الموعد، حكت عن حياة الغربة، ومتاعب العمل في الشركة، أثبتت قدراتها بعد فترة وجيزة، وكان سعيدًا لأنها كانت تستحق أن يعود إليها، وعلى الرغم من ألم النهايات، ما زال يعتقد أنه كان سيخسر كثيرًا لو لم يعرفها بشكل مباشر، يظن أيضًا أنها كانت سعيدة بالتعارف الشخصي.

لم يرد إفلات الفرصة، حدَّثها عن أفلام ومسرحيات كثيرة يشاهدها، واقترح أن يعزمها في أقرب وقت على فيلم جيد، توقع أن تعتذر ولكنها رحبت في سعادة، يظن أيضًا أنها وثقت فيه، ربما وثقت أكثر في فارق السن، هي من الأصل واثقة جدًّا من نفسها، إلى درجة أنه لم يصدق أن هذه الشخصية بحيويتها وقوتها وحضورها وجرأتها، لم تتكون إلا بعد الطلاق.

بعد أيام كانت أول عزومة، ذهبا إلى مركز ثقافي في مصر القديمة لمشاهدة فيلم كانت تحب أن تشاهده، وكان هو قد شاهده وكتب عنه، فيلم تسجيلي بديع بعنوان «هدية من الماضي» للمخرجة كوثر يونس، الفتاة الشابة جهزت هدية استثنائية في عيد ميلاد والدها، حيث أخذته إلى إيطاليا للبحث عن حبيبته القديمة، وجدتها بالفعل، وسجلت لحظة لقاء والدها بحبيبته التي تركها منذ ٣٣ عامًا.

في التاكسي لم يتوقف عن الثرثرة مع حبيبة، شعر أنه يعرفها من قبل، عندما شاهدت الفيلم سعدت وصفقت، وأسعدها أكثر أن يضاء النور فيظهر بطل الحكاية د. مختار يونس والد المخرجة أمامها وأمام الجمهور، بدا وكأنه خرج من الشاشة، كانت منبهرة بالحالة والحكاية، عندما خرجا كان يحدثها بدون أن يدري عن عبقرية وعظمة الحب، فتقول باستهانة إنه كلام فارغ.

أدهشه أنها كتبت على صفحتها بكل بساطة عن مشاهدتهما الفيلم معًا، سجلت رأيها فيما شاهدت، كل تصرف تكتبه بمنتهى السهولة، تعتمد على التلقائية والصدق، كانت نموذجًا جديدًا وغريبًا، وظلت كذلك حتى النهاية.

شاهدا معًا فيلمًا آخر هو «أخضر يابس» في سينما «زاوية»، وجلسا على كافيتريا أمام السينما لمناقشة الفيلم، لم يعجبها قَطُّ:

ـ بالذمة عاجبك فيه إيه؟

أخذ يرد بالتفصيل، فرأت الفيلم من وجهة نظر أخرى، عادت إلى البيت فنشرت مقالة عن الفيلم، وحكاية مشاهدتهما معًا له في سينما «زاوية»، قالت إن الحوار مع صاحبنا جعلها ترى الفيلم بعين جديدة.

التقط مرة حديثًا منبهرًا لها عن سينما «الزمالك»، التي يقيم فيها تقريبًا لمشاهدة الأفلام، أرسل لها صورة المكان، بدا مثل قصر منيف، اختار فيلم تحريك يمكن أن تتحمس لمشاهدته عن «فان جوخ»، أحبت الفيلم، وأكلا وجبة سمك على رصيف الزمالك من محل الجمهورية، واحتسيا الشاي على مقهى رباعيات الخيام، لا ينسى أنها ظلت تتثاءب وهي تشرب الشاي، كان ممتنًّا لأنها جاءت على الرغم من مشقة وإرهاق العمل.

صارت من أقرب الأصدقاء، أكبر قليلًا من صديقة، حكت له عن كورسات حصلت عليها، ذهب معها إلى «الجريك كامبس»، قالت إنها أقامت لعدة أيام في المكان، أذهلته بحديثها مع أصدقاء تعرفهم في المكان، تتحدث بانطلاق وثقة، وتتمتع باحترام كبير، وبكثير من الإعجاب أيضًا.

في تلك الليلة التي جلست فيها أمامه في ساحة «الجريك كامبس»، في تلك اللحظات التي كانت تتحدث فيها، كاد يقول لها: «إني أحبك»، كانا يعرفان بعضهما منذ وقت قليل، ولكنه كان قد أحبها نهائيًّا، ومع ذلك لم يقل شيئًا، ولم يندم على صمته، كانت رغبته في أن يعرفها وأن يلتقي بها تفوق كل رغبة أخرى، خاف أن يفقدها مبكرًا، أن تتخلى عن حيويتها وانطلاقها، وأن تعامله وفق «بروتوكول» جديد، أن تتكلف فتصير إنسانة غير تلك التي أحبها.

كانت حكايته مع يُمنى تتكرر بشكل غريب، سمعت في أول لقاء لهما حكايته مع يُمنى، اندهشت أنه تأخر في البوح لها بحبه، قالت إنها مع أن يقول الشخص فورًا مشاعره لمن يحب، مهما كانت النتائج.

لم يتفق معها وقتها، قال لنفسه إنه يريد أن تستمر العلاقة معها لأطول فترة ممكنة، المصارحة مثل المقامرة، والحب إما أن يبني علاقة أو يجعلها مستحيلة، لم يعرف أنه سيعترف لها بحبه فيما بعد، وسيكون ذلك، كما توقع، بداية للنهاية، بالضبط كما حدث في قصته الأولى.

كان سعيدًا منتشيًا لأنه أحب بعد فترة قصيرة من تجربة سابقة زلزلته، ولكنه كان تعيسًا جدًّا، لأنه أدرك أن النهاية محتومة ولكنها مؤجلة، سيواصل إطالة اللعبة قدر ما يستطيع، ثم ستحين ساعة الحقيقة، سيحاول من جديد أن يكون صديقًا، وسيفشل بامتياز، سيفقدها على الرغم من تمسكها بصداقته، ولكنه سيصر على الانسحاب، وكأنه كان يقرأ فنجانًا بخبرة منجِّم محترف.

كانت مشكلتها وقتها رفض فكرة الزواج كمؤسسة فاشلة، كانت مكبلة بجراح التجربة، وبفسخ خطبتين، كانت تكرر رفضها لفكرة الزواج على وجه العموم، وكان يئن ويتوجع، وتفلت منه عبارته

الأثيرة:

ـ العشرين سنة دول أوديهم فين؟

ربما أخذت بالها وضحكت، وربما وجدتها عبارة غزل لطيفة، مرة قال لها بحماس:

ـ إنتِ هايلة.

فقالت بشقاوة معجونة بابتسامة لا تنسى:

ـ أنا عارفة.

تمر الأيام فتزداد حضورًا وجمالًا في نظره، مفتون هو بالمرأة ذات الشخصية المستقلة، لا يطيق المرأة المستكينة الخانعة، أمه كانت حازمة وقوية الشخصية، سيدة البيت بلا جدال، لا يطيق أصلًا أن يجلس مع امرأة ليست ذكية، حتى لو كانت جميلة الجميلات، وحبيبة جميلة وذكية، تتقد حماسًا وشوقًا لكي تكون امرأة مختلفة، لا تخجل من دموعها، ولا من الاعتراف بهشاشة داخلية موجودة، ولكنها تثق في قدرتها على أن تتجاوز ذلك.

أن تقتني دراجة وتتعلم ركوبها وتأتي بها إلى القاهرة، كانت واقعة رمزية مدهشة، تجسد جسارتها تجسيدًا عمليًّا، أن يحدثها عن مذكرات قديمة لعثمان أحمد عثمان، فتستوقفه لتسأل عما كتب فيها، بعد أسبوع يحضر لها نسخة من المذكرات، فتعكف على قراءتها في شغف.

لم يشعر بالوقت قَطُّ معها، وكان يخجل من تعبها وإرهاقها، عملت بعد قليل في فترة ليلية، وكانت فخورة بصديقات ورفيقات الشقة، مغتربات مثلها، عرفته على موهبة زميلتها الممثلة، التي صارت نجمة بعد مسلسل رمضاني، قبلها كانت تسأله عما إذا كان يعرف منتجًا يستغل موهبة صديقتها ويشركها في أي مسلسل، قال لها:

ـ بتحبي صاحباتك إنتِ يا حبيبة.

فقالت بصوتها العميق:

ـ هُمَّ كمان بيحبوني، لما حبيت أروح رحلة لشرم، كل واحدة اديتني لبس عشان البرد.

تصدرت صورتها وهي ترفع يديها فرحة مقدمة صفحتها، كانت فوق لنش يعبر بها البحر، لم ينسَ قَطُّ ابتسامتها المنتصرة في هذه الصورة البديعة.

ـ عايزة أعزمك في رمضان في الزقازيق، الإفطار اللي بنتلم فيه ونفرح، ما تيجي بقى يا عم.

اعتذر لها لأن رمضان مرهق جدًّا، يحزن الآن لأنه لم يذهب، ليس لكي يفطر معها فقط، ولكن لكي يراها على طبيعتها من جديد، صورها في هذا الإفطار جميلة، تنقل الطعام، وتتصور مع الجميع، وتداعب أبناء أختها، وتنشر البهجة في المكان.

في يوم ألح عليها أن يلتقيا، وافقت أن يكون اللقاء في «كوستا كوفي»، مكانها المفضل، يومها تحدثا وتناقشا في أمور كثيرة، وعلى الرغم من ازدحام المكان، وتقارب الطاولات، فإنه كان يشعر أنه بمفرده معها، وأن الحياة غير ممكنة بدونها، بأي طريقة تختارها.

طرأ على ذهنه أمل واهم: ما دامت لم تتزوج فهناك فرصة، قد تتراجع عن رأيها في رفض الزواج، سيصبر ليثبت أنه جدير بها.

عندما سارا معًا ليوصلها إلى سكنها، قال لها بصوت هامس:

ـ على فكرة أنا عايز أقولك حاجة.

قالت بسرعة:

ـ لأ ما تقولش.

لا يشك لحظة أنها أحست بأنه سيتحدث عن حب سيفسد حكايتهما، لم تكن في تلك الفترة تريد أن تسمع أي كلمة حب، كانت تستمتع بتحققها، وتدرك أن مشوارها طويل، وأنها لم تفعل شيئًا حتى الآن لكي تكون فتاة مستقلة، وقادرة على الاختيار.

لم يكن هو من ناحيته قادرًا على تمثيل دور الصديق، ودور الأستاذ مستشار السينما والكتب والثقافة، كره لقبه ومهنته وحياته، وكره أن يراقب ولا يفعل، في لحظة يأس لم يحتملها أعلن إغلاق حسابه على فيسبوك، وكأنه يكرر من جديد ما حدث مع يُمنى.

كتبت معلقة تعترض على القرار الذي تستر وراء أكذوبة إعداد كتاب جديد، قرر أن يبتعد فيغلق الملف كله، لا معنى لاحتمال مزيد من الألم، ولا جدوى من علاقة لن تكتمل، توقف حتى عن التواصل معها تلفونيًّا، أو عمل لقاءات مباشرة، كان عازمًا على ألا تتكرر حكايته القديمة، وكان يعرف أن القرار مؤلم، ولكنه ليس أكثر إيلامًا من النهاية التي يتوقعها.

ذات يوم تذكر أنها معه على الواتس آب، بلهفة غريبة كتب لها:

إزيك، إنتِ كويسة؟

ردت بسرعة:

إنت فين يا عم؟ وحشتني.

تبادلا رسائل كثيرة عن الأفلام والكتب ومعرض الكتاب، ذهب إليها في شركتها ليحضر لها ولزملائها دعوات المعرض، لم تستطع الذهاب قَطُّ بسبب ظروف العمل.

لم يجد معنى لإغلاق فيسبوك، لأن من جعلته يغلق صفحته تتواصل معه يوميًّا على الواتس آب.

عندما كان يوصلها إلى البيت في طريق العودة من الكافيتريا، كانت تأخذ منه الموبايل بشقاوة، وتعيد إنعاش صفحته على فيسبوك بنفسها، بأصابعها الصغيرة الجميلة.

كانت في الحقيقة تنعشه هو، وترد إليه الحياة.

تعجبني جدًّا عندما تكتب عن حبيبة، تريد أن تثبت أنها كانت أيضًا حبًّا حقيقيًّا، وليست حكاية عابرة، بل هي الحب الحقيقي بالألف واللام وليست يُمنى، تنجح جزئيًّا، ولكنك ما زلت حائرًا بين واقع الحياة وكتابتها فنًّا، مخلص أنت أكثر للفن، جمعت أحداثًا استغرقت سنوات في فقرات متتالية، رسمت صورة واحدة مكثفة لكي تقول إن حبيبة كانت مهتمة وشغوفة مثلك، هذه لعبتك، ماشي، ولكني أعرف، وأنت تعرف، أن عملها كان لا يترك لها كثيرًا من الوقت، وأن موافقتها على لقاءات السينما لم تكن متتالية، ولا سهلة، وأنها اعتذرت كثيرًا عن تلبية الدعوات في أسف.

تعرف أيضًا أنها كانت تعزَّك ولا تحبك، والفارق كبير، وأنت تدركه، وهذا سبب الصراع في داخلك، والصراع عصب الدراما كما قلت لها كثيرًا، وهذا هو أيضًا سبب انسحابك من فيسبوك، لقد أدركت أنها لن تكون لك أبدًا، ليست مسألة العشرين عامًا، فأنت تعلم أن الحب يمكن أن يطوي الزمن، «وإيه يفيد الزمن مع اللي عاش في الخيال؟»، الحب يمكنه أن يختزل ثلاثين وأربعين عامًا، لا تلقِ المسؤولية على السن، ولكنك كنت تكره «المعزَّة»، وتريد «الحب»، كنت تريد أن تنطق حبيبة مرة اسمك مجردًا، وليس مسبوقًا بلقب أستاذ، ولم يحدث ذلك قَطُّ، وكأنها تُذكرك في كل مرة بالمسافة التي تصنعها المعزَّة.

نعم المعزَّة مسافة ودرجة، بينما الحب تلاشٍ وفناء، لا تشتمني مرة أخرى لو سمحت، صبرت عليك كثيرًا، وأنت من غذيتني بوقود الأفكار التي لا تنام، كنت سعيدًا بي عندما أسعفتك في كتابات كثيرة، وفي مناقشات صعبة، وأنا أحبك ولا أعزك فقط، ولذلك لن أتردد في مواجهتك.

كتبت أشياء كثيرة حدثت فعلًا، وتذكرت جمل حوار كاملة، ولكن الذاكرة انتقائية، تناست أشياء أخرى سنضعها بجوار بعضها بمنطق الفن أيضًا، تتذكر أن اهتمامك الزائد بها كان يخجلها، تنكمش على نفسها خجلًا، مثل بنوتة صغيرة احتضنت عروستها، لا تنطق ولا تتكلم، مع أنها تتحدث طوال الوقت، في حالتها الطبيعية.

فاكر ليلة سينما «الزمالك»، وفيلم «فان جوخ»، عندما اشتريت لها «البوب كورن»، على وقع قرمشاتها بجوارك كانت المشاهدة جميلة في رأيك، على الرغم من أنك لا تطيق هذا الصوت في أفلام أخرى ووسط آخرين، ولكنك كنت سعيدًا، في الاستراحة كانت حبيبة عطشى، فخرجت أنت سريعًا لتحضر لها زجاجة ماء، كانت حركتك سريعة وخاطفة، فركلت تقريبًا امرأة في المقعد المجاور، نظرت لك المرأة غاضبة، ولكنك لم تشعر أصلًا بوجودها، عدت ظافرًا بالزجاجة البلاستيكية، بينما كانت حبيبة تنكمش في مقعدها وتكاد تذوب خجلًا، كان اهتمامك مفضوحًا، وربما كان مزعجًا، ولكنك قَطُّ لم تنتبه.

لم تلاحظ إرهاقها وطلبها للشاي وسط التثاؤب في المقهى، تستيقظ مبكرة جدًّا لتذهب إلى الشركة، وتعمل في مكان آخر مساء، مرة اتصل بها صاحب السكن أثناء مشاهدتكما للفيلم الإيطالي «غرباء

تمامًا» في سينما «زاوية»، كانت في عز اندماجها مع الفيلم، ولكنها اضطرت إلى أن ترد، لأن صاحب المنزل كان يتحدث عن فواتير ومطالبات مالية، ثم عادت إلى الفيلم، وكتبت عنه أيضًا بوستًا ذكيًّا وممتازًا، كانت تقدر دعواتك، ولكنها لم تكن في أفضل حال بسبب ارتباطات وعمل لا يرحم، والتزامات عليها أن تسددها.

تنسى أنك أشفقت أكثر على صحتها، على نحافتها، على تعبيرها الضاحك: «أنا باسافر في العيد عشان آكل حاجة كويسة».

كانت تحترمك وتعزك جدًّا، ولا تريد أن تخذلك في دعوة، وكانت تحب السينما والكتب والمناقشات معك، ولكن شيئًا لم يتطور إلى حب، الحاء والباء ظلت ممتنعة، وضع لقاءات لطيفة بجوار بعضها يمكن أن يصنع فنًّا، ولكنه لا يمكن أن يصنع حبًّا.

كان حبك لها جهير الصوت، يمكن أن يسمعه أبعد شخص عن المكان، تسمعه حوانيت وشوارع وسط البلد، شاشات السينما وكراسي المقاهي، الجسور وأوراق الكتب وأطياف الأفلام، وكانت معزَّتها لك خافتة، هامسة، خجولة، تجعلها منكمشة على ذاتها، بالكاد يمكن أن يسمعها الآخرون.

أنت من كنت تقدمها لكل من يعرفك في السينمات، تقدمها بفخر وسعادة: «حبيبة، صديقة عزيزة».

لا تعرف بالضبط ما تفعله في الشركة، شرحته لك أكثر من مرة بالتفصيل فلم تفهم، ولم تهتم أصلًا أن تعرف، يكفي أنها حبيبة، ويكفي أنها صديقة حتى تنفرج الأحوال، فربما يتذكرها «كيوبيد» بسهم وهي تأكل السمك معك على مائدة الرصيف في محل الجمهورية.

شفت؟ تعلمت منك السخرية، لكني فعلًا كنت ألاحظ ما لا تلاحظه، العاشق يبدو منتشيًا ومغيبًا عن العالم، والعقل صامت لا يسمح له بأن يتدخل وإلا نالته الشتائم وعبارات السباب، كنت أقول لنفسي: «لا تفسد فرحته، وإذا طلب تدخلك فقل له ما يمليه عليك الواجب».

لم تطلبني مرة وقتها، فوقفت أتفرج ولم أتدخل.

تتذكر أنك كتبت لها على الواتس آب:

طبعًا ملاحظة أني أسعد بظهور معارف وأصدقاء لأقدمك لهم، أنتِ مشرِّفة جدًّا يا حبيبة.

ردت سريعًا:

طبعًا واخدة بالي، ربنا يخليك يا أستاذ.

أستاذ مرة أخرى، لا تنسى أبدًا هذا السور العالي الذي تمنيت أنت أن تهدمه، ولكن ذلك لم يحدث قَطُّ.

تنسى أيضًا أنها ظلت تتعامل بطفولية في بعض الأحيان، ولكنك لا تريد أن تخدش صورتها كما تحبها.

اقتحمت الواتس آب ذات يوم لتسألك عن صحفي كبير في التلفزيون، قالت إنها انبهرت بذكرياته، تساءلت عما إذا كنت أنت تعرفه شخصيًّا، لأنها مهتمة جدًّا أن تراه وتناقشه وتسمع منه.

اعتبرت ذلك تكليفًا، أقنعت نفسك أنك تريد أيضًا أن تقابل هذا الزميل الكبير، وكنت قد تحدثت عنه في واحد من كتبك، ستكون فرصة لكي تسمع منه أيضًا وتهديه كتابك، حصلت على رقم تلفونه، واتصلت به، وأخبرته بالصديقة المعجبة التي تريد أن تلتقيه.

كان لطيفًا وودودًا، حدد موعدًا لكما في الزمالك، حاولت ألا يكون الموعد وقت سفرها، وأضفت إلى الطلب أن يشاركها اللقاء صديق أجنبي تعرفه، يتعلم اللغة العربية، وسيجد بالتأكيد في ذكريات الصحفي الكبير، المولع بالبشر والأماكن والتاريخ، كنزًا كبيرًا يمكن أن يستفيد منه.

رحب الرجل باللقاء الثلاثي، ولكن حبيبة طلبت التأجيل أكثر من مرة بسبب زحمة الشغل، وكنت مقدرًا لذلك، وعارفًا بأنها تتشوق فعلًا إلى اللقاء، ثم طلبت حبيبة مرة ثانية تحديد موعد آخر، ولكنها ارتبطت بشغل جديد، فلم يتم اللقاء قَطُّ.

على الرغم من أنك أحسست بحرج لا مثيل له أمام الصحفي الكبير، فإنك لم تحدثها عن الموعد إلا في لحظة غضب منها بعد ذلك بشهور طويلة، ساعتها عادت طفلة منكمشة تمسك عروستها، وتريد أن تتلاشى، لا تملك جوابًا، وتذوب خجلًا وخوفًا، وكأنها أمام أب سيضربها ويعاقبها حالًا.

لا تريد أن تذكر حكاية الصحفي الكبير لأنك قررت أن تغفر لها أي شيء، خلاص لم تعد مجرد فتاة يمكن عمل بلوك لها، صارت ملكة القلب والروح.

حزنتُ عليك ساعتها، ولكني أعرف ما يفعله العشق بالعشاق، أنت لا تتسامح في عدم الوفاء بموعد، ولكنك لا تستطيع أن تذهب وحدك إلى الصحفي الكبير بدونها، وبدون صديقها الإيطالي الذي يتعلم العربية، والذي لا تعرفه إلا منها، أي أنه ضيف الضيفة التي طلبت لها موعدًا.

لا تغضب إذا قلت إنك تناسيت الحكاية ولم تكتبها لأنها تتعلق بالشاب «بيترو»، الذي دخل حياتها فدخل حياتك، لا تريد أن تتذكر بدايات علاقته بها وكتابتها عنه، يؤلمك ذلك، تتحدث اليوم عن منافس، بل عن فائز جمعوا له كل النقود التي راهن بها الجميع على المائدة الخضراء، راهنت أنت أيضًا، وفاز «بيترو».

سأذكرك أنا بالبدايات، أول مرة سمعت عنه بدون اسم، كتبت لها مرة على الواتس آب عن كتاب جديد، فردت بسرعة قائلة إنها كانت بالأمس تقرأ من كتاب لك، أهديته لها، لصديق أجنبي يتعلم العربية، ويبدو أنها تساهم بذلك في تعليمه.

لم تقل اسم الصديق، ولم تهتم أنت بوجوده معها، لها أصدقاء كثيرون، شباب وفتيات، هي مرحة ومحبوبة للغاية، وشخصيتها قوية، تستطيع أن تضع الحدود التي تراها، أتفق معك تمامًا في ذلك، وأضيف أنها شرسة تجاه من يتجاوز حدوده، لذلك لم تهمك حكاية الصديق، الذي لا تهتم هي أن تقول اسمه، ولكنك سعدت فقط باهتمامها بكتابك، وبأنه صار مثارًا للحوار مع صديق لها.

لم تزعجك قَطُّ كثرة أصدقائها، كانت تنفتح على العالم، وكنت سعيدًا بمجتمعها القاهري الجديد، بحب الناس لها، بهزيمتها للغربة القاسية، بقدرتها على القراءة والكتابة على فيسبوك ومشاهدة الأفلام، بتقدمها المدهش في العمل، بمحاولتها للتقدم في الدراسة والحصول على شهادات جديدة، لم تكن تنجح في كل الأحوال، ولكن هذا النشاط الاجتماعي كان يستحق الدعم، وخصوصًا أنه انعكس في مساعدات كثيرة لمن يحتاج، حتى لو طلبت عروس المساعدة في تجهيزها كانت حبيبة تتولى الأمر بكل بساطة، وبدون أدنى شعور بأنها تفعل شيئًا مميزًا أو استثنائيًّا، كان ذلك يتم بكل تلقائية كجزء من شخصيتها، هذا الجزء لا يمكن أن أجادلك بشأنه، كانت فعلًا رائعة، لا ترتدي أي أقنعة، على طبيعتها، حتى عندما تثور وتشتم على فيسبوك.

متفق أنها تركيبة فريدة، نموذج أدبي يا سيدي كما تُفضل أن تصفها، أحيانًا فعلًا بدت كما لو كانت شخصية خرجت من رواية، فتاة مثقفة دينيًّا وأزهريًّا، صارت شغوفة بالناس والعالم والمعرفة، لها حضور أنثوي لا شك فيه، ولكنها قوية مثل الرجال، بل كثيرًا ما قلت أنت لها وهي تشكو صراعها للحصول على حريتها وقدرتها على الاختيار:

ـ إنتِ والله بميت راجل يا حبيبة.

فتقول فورًا:

ـ ولا راجل ولا نيلة، باحاول أدافع عني.

تستحق الحب والإعجاب بدون جدل، مبسوط يا سيدي؟ لكنك لم ترد أن تلاحظ حكاية الصديق الأجنبي الذي يتعلم العربية قَطُّ، كنت ربما تريده أن يكون جزءًا من دائرة الأصدقاء، حتى دعوة حبيبة له لكي يشارك في لقاء لم يتم مع الصحفي الكبير، لم تتوقف عندها قَطُّ، ضيف حبيبة ضيفك، وصوره معها وسط أصدقاء كثيرين أمر عادي بالنسبة إليك، مثل صورها الحلوة التي تكتظ بها صفحتها، بل لعلك لم ترَ في تلك الصور المكتظة بالبشر إلا حبيبة، يكفي أن تبتسم أجمل ابتسامة رأيتها على وجه امرأة حتى لا تلاحظ غيرها، مهما كان عدد المزاحمين لها في الكادر، كانت ابتسامتها وحدها كافية لكي تجعلك سعيدًا عدة أيام.

كنت تسأل:

ـ لماذا يشربون الخمر؟

وترد:

ـ لأنهم لا يعرفون ابتسامات النساء.

غرقت في الخيال والمجازات، بينما قصة حب رقيقة تنمو بالقرب منك، أعرف أنك لا تملك أمرًا حيال ذلك، ولكن ملاحظتك كانت ستوفر أوقاتًا كثيرة من الوهم، من الأمل الكاذب بأنها ترفض فكرة الزواج نفسها ولا ترفضك أنت، أو بمعنى أدق: أنت هنا بالقرب منها، وهي غير مشغولة، وقد تحدث معجزة، آمنت حقًّا بذلك، لأن حبك لحبيبة بعد يُمنى مباشرة كان بمثابة معجزة، لذلك تمسكت بها حتى النهاية، لم تكن تعرف أن أحدًا هناك يعبث في حكايتك مع حبيبة مثلما عبث في قصتك مع يُمنى.

لا تريد أن تحكي عن بدايات قصتها مع «بيترو»، أذكرك أنا: بدأت تذكر اسمه، تتحدث عن رحلات مشتركة مع أصدقاء، عرفت أنه يسكن في الشقة المجاورة، وأنه واحد من أصدقاء أجانب استأجروا شققًا في العمارة نفسها، حبيبة حاضرة في كل الحكايات، تحكي أنها عزمت أصدقاءها الأجانب على صينية مسقعة صنعتها بنفسها، هي التي كانت تتعلم الطبخ بصعوبة، تحكي عن نشاط «بيترو» الرياضي، تراها في صورة وهي تجدف مع صديقة مصرية، تقول إن «بيترو» هو الذي دعاهما لرحلة لممارسة التجديف، كانت مشرقة وسعيدة في كل الصور.

حتى عندما أغلقت أنت صفحتك على فيسبوك، أرسلت لك حبيبة تفاصيل بوست كتبته عن رحلة مشي غريبة مع «بيترو»، بدأت من القاهرة وصولًا إلى طنطا، رحلة صعبة وشاقة، ما كانت لتتم لولا حماس «بيترو»، الذي كتب بدوره على صفحته بالإنجليزية عن حبيبة رفيقة السفر والمغامرة، أما الصور فتظهر فيها حبيبة وهي سعيدة بحريتها، وبالمغامرة، يصورها «بيترو» وهي وسط الحقول، والندى والضباب يغلفان المنظر، وتصوره يشرب الشاي على قهوة بلدي.

هنا فقط تنبهت إلى «بيترو» اسمًا وصورة، لم يعد صديقًا بين أصدقاء، صار الصديق والرفيق المغامر، ولكنك أيضًا كنت سعيدًا بحبيبة، ومبهورًا بقدرتها على تنفيذ ما تحلم به، كتبت هي عن مخاوفها ليلة السفر، وعن صعوبات ومضايقات الرحلة، وعن ليلة سمحوا لها بأن تنام في أحد المساجد، كانت الرحلة أشبه بفيلم تسجيلي مرئي، بل لعلها كانت تستحق أن تصور كفيلم، مثل حكاية الفتيات الثلاث المغتربات في شقة واحدة.

أحسست أنت للمرة الأولى بالغيرة، تمنيت أن تكون معها بدلًا من «بيترو». عند أول زيارة لك إلى طنطا، قمت بتصوير الطريق والزراعات، وفلنكات السكة الحديدية التي سارت معها هي برفقة «بيترو»، وأرسلت إليها الصور. كنت تريد أن تقول إنك رأيتها على الطريق، تتبعت خطاها، على الرغم من أنك لم تكن معها، لم تكن معهما.

ربما كنت واعيًا أن المشكلة لم تكن قَطُّ في ظهور «بيترو»، ولكنها كانت في أنها لم تحبك قَطُّ، كانت تعزك جدًّا، وتلجأ إليك كثيرًا، تريد صديقًا، وتريدها حبيبة، وأنت ترى أنه إذا وقع الحب ولو من

طرف واحد فلا صداقة، حتى لو لم تكتمل الحكاية من ناحيتك لن تكرهها أبدًا مهما حدث، ستعاملها دومًا كحبيبة، الحب يلغي كل العلاقات الأخرى الممكنة، أو هكذا تؤمن وتظن.

أذكرك بهذا البوست الذي كتبته أنت بعد نهاية حكاية يُمنى، ثم أعدت نشره بعد حكاية حبيبة، ودومًا أنت تسخر حتى لا تصرخ بصوت عالٍ:

صاحي منتعش لليوم الثاني على التوالي، وده مش كويس علشاني، كده هاتعود. عمومًا قلت النهارده أحكي معاكم عن فكرة بتشغلني دايمًا عن العلاقة بين الرجل والمرأة.

في رأيي، الذي لا أجزم بصحته، أن علاقة حب فاشلة بين طرفين مش ممكن تتحول لعلاقة صداقة كاملة وحقيقية وناضجة، يعني الصداقة مش بديل عن الحب، الصداقة شيء عظيم ومختلف، والحب أيضًا شيء عظيم ومختلف، مفيش عاطفة تمثل ترضية أو بديل عن عاطفة، وبالذات الحب والصداقة، لأنهما عاطفتان قريبتان جدًّا من بعضهما، ملتبستان جدًّا، وكثيرون يرون أنه عندما يفشل الحب، لازم نطلب من الصداقة إنها تقوم تسخن وتلعب بدلًا منه في الملعب يمكن تنقذ حاجة وتغيَّر نتيجة المباراة.

بالنسبالي ده ما بيحصلش، ما بيتغيرش شعور الحب، وباعرف أفرَّق في العلاقات بين الحب والصداقة. اللي بيقول إن الأمر ده ممكن، بيطلب من الطرف الآخر إنه يدوس على زرار الحب عنده فتتحول العلاقة إلى صداقة، وبينسى بالمقابل أن هذا المنطق، يفترض منطقًا معاكسًا، هو أن يجرب الطرف الآخر أن يدوس على زرار الصداقة عنده (جنب الفيشة على إيدك اليمين) فتتحول العلاقة إلى حب، أم أن هذا الزرار/«الأوبشن» موجود عند طرف دون الثاني؟!

في رأيي أن العواطف الإنسانية، بالذات بين الرجل والمرأة، معقدة جدًّا، وفي رأيي أنه لا يمكن التحكم فيها بأزرار أبدًا، ولا يجب أن تحكمها لعبة الأقنعة، الصداقة مش عاطفة احتياطية على الإطلاق.

أؤمن جدًّا بالصداقة بين الرجل والمرأة، لكن إذا دخل الحب بينهما على الخط، حب حقيقي يعني، العلاقة بتدخل مستوى تاني خالص، طيب ما حصلش حب، تبقى فيه كراهية؟ أبدًا على الإطلاق، فيه احترام وتقدير ومودة عظيمة وهائلة، لكن الحب الموجود عند طرف أو عند الطرفين مش هيتحول أبدًا إلى صداقة كاملة وناضجة وكبيرة، الحب بيظل موجود، زي حلم متعلَّق على الشماعة، جنب إخواته الأحلام التانية اللي جعلت الشماعة كاملة العدد.

ليه ما بيحصلش التحول ده؟ ربما لأن الحب عاطفة جامحة وعاصفة، وملهاش أي منطق أو سبب، سحرية تقريبًا، ومستحيل تعثر لها على تفسير، بينما الصداقة فيها كثير من المنطق والعقل، ممكن تفسرها، وإن كان أساسها ارتياح عاطفي، وكيمياء بين النفوس.

سامع واحد بيقولي: «ما الصداقة بين الراجل والمرأة بتتحول أحيانًا إلى حب، فليه مش معترف إنه يحصل العكس؟». أرد أقوله: ده تساؤل هايل، الحقيقة لو تحولت الصداقة إلى حب بتبقى في رأيي أصلًا مش صداقة، هُوَّ حب بالأساس، بس الطرفين في الغالب كانوا عاملين فيها أصدقاء في انتظار أن يبدأ أي طرف بالاعتراف، أو إنهم فعلًا بيختبروا مشاعرهم ومش متأكدين منها، أو هُمَّ بيقاوموا شعور الحب لسبب أو لآخر ومش عايزين يعترفوا بيه، فبيتداروا ورا الصداقة، لكن هنا مفيش صداقة من الأساس، ده «كيوبيد» متنكر حضرتك، وعامل فيها مخبر .

مش عارف يمكن إحنا كصعايدة عواطفنا زي الشمس عندنا، واضحة وصريحة، بنعبر عن نفسنا بلا مواربة، وبنفخر بعواطفنا أوي، وما بنتكسفش منها، وما بنحبش نلبس أقنعة أبدًا، بالذات في مسألة العواطف، بل أزعم إن الصعيدي شخصية عاطفية جدًّا جدًّا، الجنوبيون عمومًا في كل مكان مشاعرهم قوية وحارة وصريحة. عمومًا أنا جاي أهدِّي النفوس يعني، وربنا يستر وما اقومش منتعش تاني، فأدلي بدلوي في قضايا خطيرة من هذا النوع مرة أخرى.

أذكرك بتطور آخر تناسيته: دعت حبيبة «بيترو» وزملاءه الأجانب إلى زيارتها في الزقازيق، واستقبلهم والدها، ربما كأجانب يريدون أن يعرفوا المجتمع المصري، صور كثيرة تسجل الزيارة، صديقات وأصدقاء، ثم تطور آخر هو سفر ووداع «بيترو»، وذهابها بنفسها لوداعه في المطار، وصورة نشرتها وهما معًا، دموع واضحة في العينين، حدث ذلك في الوقت نفسه الذي كنت ترسل لها أنت دعوة فاترة لمشاهدة مسرحية في الأوبرا، نص صلاح عبد الصبور «مسافر ليل» يقدمونه في عربة قطار ديكور، خطفت الأنظار في ساحة مسرح الهناجر.

حدث بعدها غضبك الكبير الذي جعلك تعترف لها بعدها بالحب، من الغضب إلى الاعتراف، احكِ يا أستاذ، وسأذكرك إذا تناسيت، كن مخلصًا أكثر للواقع وليس للفن.

هناك شيء مزعج وفاتر، وهناك كآبة بادية تمر عليه. سأل نفسه عما إذا كانت قد حانت أخيرًا لحظة النهاية.

لم يكن لديه حق أساسًا أن يغار عليها، أو يحاسبها على اختياراتها، بل إن ما أعجبه فيها دائمًا هو أنها مستقلة وحرة، وحتى فكرة الحب، إذا أحبت هي يومًا، تبدو عادية، ولا يمكن لصاحبنا أن يلوم شخصًا على أنه يحب، أو يدفعه للتوقف عن حب شخص بعينه، وإلا لكان جديرًا به أن يوقف حبه هو لحبيبة، أو يسيطر عليه، هو أمر يعرف تمامًا أنه مستحيل.

ما أزعجه فعلًا في اعتذارها عن قبول دعوته، أنه لم يعد حتى من أصدقاء الدرجة الأولى، وأن النهاية يجب أن تكون الآن وحالًا، لأنها قادمة قادمة بالتأكيد، ومع التأجيل سيزيد الألم، ولن تتغير النهاية، كان موقنًا من ذلك.

على الخاص كتب لها مجروحًا:

مش هادعيكي تاني، الاهتمام ما يتطلبش يا حبيبة، خلاص حرمت أبادر بدعوة.

بعد دقائق كان يستقبل منها لأول وآخر مرة رسالة صوتية، تعتذر فيها عن انشغال استثنائي، قالت ببساطة إنها وعدت «بيترو» أن تودعه، وذلك لا علاقة له باحترامها لشخصية ومكانة صاحبنا الخاصة عندها، وإنها لا يمكن أن تفرط في صداقته أبدًا، وقالت إن هذه المرة الأولى التي تطلبه بنفسها وتصر على مقابلة صاحبنا، ليس مهمًّا أن يشاهدا فيلمًا أو مسرحية، ولا حتى أن يذهبا إلى السيرك، وهي دعوة ألح عليها صاحبنا ولم تتم قَطُّ، ولكنها تريد أن تلتقي به لتعرف ماذا أغضبه منها، ولتؤكد اهتمامها باستمرار الصداقة.

تراجع صاحبنا خطوتين، ونسي غضبه مؤقتًا، لكنه أضمر أن يفضفض بصراحة في لقائهما، دعاها إلى عرض مسرحية «مسافر ليل» في ساحة الهناجر، وافقت على الفور، وجاءت قبل الموعد، دخلا المسرحية، أو بمعنى أدق صعدا ديكور القطار معًا.

كانت سعيدة بالعرض، تمنى لحظتها أن تتحول عربة القطار إلى حقيقة، وأن تأخذهما إلى رحلة باتساع العالم، لا يهبطان في محطة، ولا يرجعان أبدًا إلى الأوبرا أو إلى الأرض، رحلة بلا نهاية، وبدون خطة، وبدون توقف، دائرة بلا نهاية.

تحدثا طويلًا عن المسرحية، وكالعادة كانت لها آراء ذكية جدًّا، على الرغم من أنها المرة الأولى التي كانت تشاهد فيها مسرحية كتبها صلاح عبد الصبور، كانا يتفاديان موضوع الغضب، ورسالتها الصوتية، مع أنهما يعرفان أنهما حضرا على جناح رسالته المكتوبة، ورسالتها الصوتية الحزينة.

لاحظ منذ وصولها أن عينيها الجميلتين منطفئتان، كانت الكآبة تعشش في وجهها، حزن عميق عرف فيما بعد أنه بسبب وداع «بيترو»، كانت في أسوأ حال شاهدها عليها منذ عرفها والتقاها، وكان هو أيضًا في حالة قلق وغضب، انتظر فرصة أن تسأله وهي تستعيد روحها القديمة لعدة دقائق:

ـ فيه إيه بس يا عم؟ زعلان مني ليه؟

لم يقل حرفًا عن «بيترو»، هذا موضوع يخصها، وهي لم تقل لصاحبنا قَطُّ إنها تحبه، تحدث كاذبًا عن صداقتهما، كان متأكدًا أنها تعرف أنه يحبها، ولكنها لا تريد أن تسمعها منه، لأنها ستتحدث وقتها عن الصداقة وحدها، وهنا سينتهي الموضوع كله، بالضبط كما حدث مع قصته مع يُمنى، التي تعرف حبيبة تفاصيلها، وكانت القصة موضع حديثهما واستشارتها العاطفية في أول لقاء بينهما، تعرف حبيبة تمامًا أنه لا يمكن أن يتحول هو من حبيب إلى صديق، وقرأت ما كتبه على صفحته، وعملت لايك أيضًا مؤيدة لهذه الفكرة.

هنا تذكر صاحبنا قصة ترتيب لقاء مع الصحفي الكبير، ووعدها بأن تحضر، ثم نسيانها الموضوع كله، بدون حتى كلمة اعتذار، وهنا أيضًا عادت هي طفلة مرتبكة ومنكمشة تشعر بالذنب، وتنتظر أن تُصفع، ولكن هذه الحركة التلقائية التي شاهدها منها مرتين منذ عرفها، ألقت ماء باردًا على بركان غضبه، لطالما فتنته بساطتها، وقسوتها على نفسها، واعتذارها الدائم إذا أخطأت، لم ينسَ أنها كتبت في فترة المقاطعة الأولى عن تصرفها الغريب في الحضور بعد ساعة من الموعد، قالت في البوست إنها ارتكبت خطأ فادحًا في حق صاحب الموعد (هو)، وإنها لم يكن ممكنًا لها أن تتصل به ثانية، لأنها مخطئة بل مذنبة أيضًا.

طيَّب خاطرها، وتراجع تمامًا عن فكرة أن يصارحها بحبه، كان لقاء لتصفية أزمة، كل طرف يعرف أن العلاقة بائسة وستنتهي حتمًا، وأن ساعة الحقيقة قادمة لا ريب فيها، ولكن يمكن أن تستمر العلاقة على عكاز بائس تحت لافتة الصداقة، كان قد عرف حبيبة منذ أربع سنوات، لا تخلو من بهجة وسعادة حقيقية أو متوهمة، وأراد أن يكون فقدها هو الخيار الأخير الذي لا بديل عنه، الاختيار صفر كما يقولون.

سيكون عذاب وقلق، وستكون حيرة واكتئاب، ولكن غيابها هو الموت، ربما فكرت هي مثله عندما رفضت أمام بيتها أن يقول لها كلمة «أحبك»، لعلها سمعت الكلمة وهي محشورة في الحنجرة، كانت في عز علاقة حبها مع «بيترو» كما يخمن، لم ترد أن تفقدهما معًا، ولا أن تفقد أحدهما. كانت تعرف أيضًا، فيما يتخيل، شعورها تجاههما بالضبط: «بيترو» هو الحبيب، وصاحبنا هو الصديق الأعز، وأي كلمة عشوائية، وليست في وقتها، يمكن أن تدمر المعادلة المتزنة.

حبيبة كذلك لا تريد أن تجرح صاحبنا بالذات، لا يستحق ضربتين في الرأس، وليست هي بالذات من تفعل ذلك، كانت دومًا سعيدة لأنه يناقشها رأسًا برأس، وكانت تراه أستاذًا مؤمنًا بها، ومتحمسًا لنشاطها.

عاد إلى بيته كأن شيئًا لم يكن، تواصلا على الخاص كثيرًا حول أفلام وكتب، حتى كان يوم آخر حسم تردده نهائيًّا، تابع على صفحتها ما تنشره حول رحلة بدأها «بيترو» للعودة من المغرب إلى إيطاليا، كانت تتواصل معه لحظة بلحظة، تنقل فيديوهاته وتترجمها، وتنقل له التعليقات، كانت رحلة جذبت صاحبنا أيضًا، ولكن ما أغضبه بوست عابر كتبته حبيبة على صفحتها عن «بيترو»، قالت فيه إنه أول رجل جعلها تشعر بأنوثتها.

هذه العبارة التي لم ينسَها صاحبنا قَطُّ جعلته في حالة غضب مخيف، هي ربما لا تحبه، وربما مغرمة بالشاب «بيترو»، ولكن أن يكون هو أول من جعلها تحس بأنها أنثى، فإن ذلك يعني شيئًا واحدًا هو أن كل ما فعله أو قاله طوال أربع سنوات، من مدح لجمالها، يلامس حدود الغزل، لم تسمعه حبيبة قَطُّ ولم تشعر به.

كان صاحبنا يتحدث إذن إلى الهواء، حتى النسمة العابرة يمكن أن تحمل غزله إلى فتاة ما جميلة في مكان بعيد فتشعر ربما بأنوثتها، أما حبيبة فأنوثتها لا تشعر إلا بكلمات أو بتصرفات «بيترو» الجوال، والذي عاد توًّا إلى بلاده.

ـ بقى يا حبيبة «بيترو» هو الرجل الوحيد اللي خلاكي تشعري بأنوثتك! معقولة كل اللي قلته وعملته ما أثرش خالص؟

ـ إنت فهمت ازاي كده؟ أنا عارفة أد إيه إنت رقيق وجميل معايا، إنت كمان من الناس اللي قدرتني جدًّا.

ـ طيب اسمعي بقى، أنا باحبك من سنين، وحاسس إنك بالتأكيد عارفة إني باحبك، ومن زمان كمان.

ـ إنت بتقول إيه! فعلًا؟! (لازمتها المفضلة).

ـ أيوه، كل تصرفاتي بتقول كده، أنا خلاص تعبت ومش بافكر في أي نتيجة للي قلته، لازم تعرفي إني باحبك كامرأة، كأنثى، إنتِ قلتِ في أول لقاء لينا أنا مش مع اللي يخبي عن واحدة إنه بيحبها، طيب أديني فضفضت وقلت، وعايز منك رد فوري، بتحبيني ولا لأ؟ أنا مستعد أتجوزك فورًا.

ـ إنت عارف معزتك عندي، وعمري ما منعتك تتكلم، قول اللي إنت حاسس بيه.

ـ باحبك كمان مرة ومستعد أتجوزك، إنتِ رأيك إيه؟

ـ إنت عارف إني مش عايزة أفقدك تاني أبدًا، بس كمان عارف رأيي في الجواز، هتكرهني، أنا عارفة نفسي، ده مؤسسة فاشلة، مش هنكمل.

ـ أنا قابل تصرفاتك.

ـ مش عايزاك تتصدم بحاجة قدَّام إنت ما تعرفهاش عني.

ـ عايز اتصدم بحاجة قدَّام أنا ما اعرفهاش عنك.

ـ إنت كده بتتعبني أوي يا عم.

ـ العم يا حبيبة على حافة الهاوية، مش هاعرف أهزر معاكي، أنا وصلت للاعتراف ده بعد جهد، خدي وقتك تمامًا، فكري وردي عليَّ، فيه أمل ولو بسيط؟ ولا خلاص ما يجيش منه؟

ـ إنت تعبتني يا عم.

ـ أنا حبيتك يا حبيبة ومش هارجع للماضي، عارف إن بكرة عندك شغل، ولازم تنامي، مش هازعجك أكتر من كده، خدي وقتك.

كأن جبل المقطم الرابض فوق قلبه قد انزاح، قال لنفسه إن اللعبة يجب أن تنتهي، وإن الألم لا بد أن يتوقف، أغلب الظن أن حكايتها مع «بيترو»، هكذا تخيل، وصلت إلى طريق مسدود، هذه هي الفرصة المناسبة ليقول لها: «أحبك»، ولن تتكرر أبدًا، كانا على مشارف سنة جديدة، وشاهد لها فيديو قصيرًا وهي ترقص وتدور حول نفسها مع صديقاتها، كانت سعيدة للغاية، وكان يرى أن «المود» لديها مناسب لكي يصارحها بدون تردد.

ولكنه تمنى أن يراها وهي ترد عليه من خلال الماسنجر، أن يختبر عينيها وهي تراوغ وتتحدث عن رفضها عمومًا لفكرة الزواج، أن يسمع صوتها وهو يهتز، أن يرى انكماشها المألوف كطفلة ضُبطت وهي ترتكب ذنبًا، أن يسمع صوت عواطفها، وهمس تفكيرها، وأن يرى إيقاع كعبها العالي، أو خطوة حذائها الرياضي، وهي تغادر بعد الحوار.

لم يفكر قَطُّ في أنه قد يفقدها إلى الأبد، كان مثل رجل مثخن بالجراح، لا يفكر إلا في أن يغمض عينيه ليستريح من الألم.

تكسرت نصال حبيبة على نصال يُمنى، ليس في قلبه مكان بدون جرح، أحس بالضعف، بالهوان، بالإهانة، بالظلم الشديد، نظر إلى السماء وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فتذكر الآية الكريمة: «ڎ ڎ ث ث ٿ ٿ ٹ ٹ ڈ ڈ».

قال وقد صعبت عليه نفسه: «أبدًا لا أستحق كل ذلك».

ليلة بحالها ينظر مؤرقًا إلى سقف الحجرة، يحاول أن يتذكر إيذاء فعله يعادل ويوازن هذا الانتقام الإلهي، حتى أهل «الهلس» والقتل والجريمة يرزقون قصة حب جميلة، كرر صارخًا: «ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟».

لم يجبه أحد، اندهش أن فؤاد حداد كان يكتبه عندما قال:

بكيت مسحت دموعي

بامسح دموعي بكيت

في الصباح تذكر حكاية الثلاثة الذين أغلقت الرياح عليهم باب كهف بصخرة هائلة، فاقترح أحدهم أن يتذكر كل واحد منهم حكاية أو عملًا لم يفعله إلا التماسًا لرضا الله، أو خوفًا من غضبه، وكلما حكى الواحد منهم حكاية بهذا المعنى، انفتح جزء من باب المغارة المغلقة بالصخرة الهائلة، ومع نهاية حكاية الرجل الثالث، فُتح باب المغارة تمامًا، فخرجوا ونجوا.

هزته الحكاية من الأعماق عندما قرأها للمرة الأولى.

قد لا يكون صاحبنا متدينًا بمعيار الطقوس والفروض، ولكنه لم يفقد قَطُّ إيمانه بوجود قوة عظيمة قاهرة، هو أكثر من يعرف معنى سحر النفخة الإلهية التي تقول للفنان: «اذهب فأنت مبدع»، يعرف أن طريقة خروج الصوت البشري واحدة، ولكن عصا سحرية بيد الله، تمس الصوت بعد خروجه من الحنجرة، فتضع فاصلًا ومسافة بين أصوات عبد الوهاب وثومة وعبد الحليم ونجاة وفيروز، وأصوات بقية خلق الله.

هو أكثر من يحدثك عن غموض الحب والإبداع، وعدم وجود معادلات تفسره، وأكثر من يرى الله في الفن والفنان، بل إن الله عنده هو الفنان الأعظم، الذي يمنح من خلقهم مجرد لمسة أو نفخة، توكيلًا مؤقتًا بالإبداع خرجت منه كل الأعمال العظيمة، يقول صاحبنا في مقالاته: «ما زلنا نحاكي فلا نصل، نبدع فلا نبقى، نلتمس شعاعًا من نور، ونحلم بأن يهبنا الخالد العظيم بقايا من خلود».

هو أقرب للتصوف في إيمانه بأن هناك قانونًا وحيدًا اسمه الحب يدير الكون كله، بعض الفلسفة أخذها عن والده، الذي كان يحدثه ليل نهار عن سقراط وأرسطو وأفلاطون، ويردد على مسامعه أشعارًا لا تنسى:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه

فالحب ديني وإيماني

***

شربت الحب كأسًا بعد كأس

فما نفد الشراب وما رويت

***

قلبي يحدثني بأنك متلفي

روحي فداك عرفت أم لم تعرف

وجود الله عند صاحبنا مرتبط بوجود هذا السحر الذي يتعذب به: الحب.

فكر ذلك الصباح أن يبحث عن شيء واحد فعله فقط ابتغاء مرضاة الله، أو خوفًا من إغضابه، فكر أنه لو تذكر مجرد واقعة واحدة، ولديه منها كثير، فقد تتحرك الصخرة التي تغلق عليه كهف الكآبة والموت.

تذكر امرأة لا يعرفها رثة الثياب منحها نقودًا في الأتوبيس فدعت له، تذكر شخصًا كان يستطيع بسلطة امتلكها هو أن يفصله من العمل فلم يفعل، تذكر رجلًا كان يمكن أن يرد عليه إيذاءه فلم يحدث، طفلًا منحه لعبة أو ابتسامة، قطة جميلة جريحة أخذها ليعالجها، نورًا تركه مفتوحًا حتى لا يتعثر الصاعدون على السلالم، قبلة على يد أمه، وأخرى على قدمها وهو يودعها الوداع الأخير في المستشفى، شخصًا رفض أن يفضحه، فتاة جميلة أحبها ولم يفكر قَطُّ في أن يستغلها أو يؤذيها.

هتف وقال: «يا رب»، قالها من الأعماق، وأردف: «أنت من خلقت هذا السحر، وأودعته في قلبي، فاصرفه عني، لا أحتمل ولا أقدر، إذا لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، لست ملاكًا، ولكني لم أؤذِ أحدًا، ربما أكون قد آذيت أحدًا بدون أن أقصد، وقد أكون نسيت، ولكني لم أتعمد قَطُّ إيذاء مخلوق ممن خلقت أنت، أراك في الجمال، في الفن الذي صنعت، فلا تؤذني مرة أخرى في قلبي الذي خلقت، لا تؤذني في قلبي الذي خلقت».

بكى من جديد فأحس براحة وصفاء، زالت صخرة الكآبة قليلًا، طرأ له خاطر ابتسم له، تذكر أنه ربما آذى «فيرتر» عندما لم يتفهم مدى ألمه، ومدى حزنه ويأسه، وربما آذى «روميو» و«جوليت» عندما اتهمهما بالمراهقة الخائبة.

تذكر بيتًا يحبه للمتنبي يقول فيه:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته

فعجبت كيف يموت من لا يعشق؟

السبب الوحيد المقبول للموت هو العشق، صدقت.

لم يعد مهتمًا بمضمون الرد على رسالته، مر يوم واثنان وثلاثة، بعث على الخاص بعدة علامات استفهام، كان يخمن أنها تؤخر الرد، لأنها تعرف قراره النهائي بالابتعاد.

ثم ردت أخيرًا:

ـ معلش غصب عني، كنت مسحولة (تعبير آخر أثير لديها) طول اليوم في الشغل، زي ما قلتلك أنا عارفة نفسي، هتكرهني لو اتجوزتني.

ـ طيب، فهمت خلاص.

ـ إنت هتعمل إيه؟

ـ ما تخافيش مش هانتحر.

ـ بجد عايزة أعرف.

ـ هاعمل حاجة تريحني أكتر.

ـ زي ما تحب.

شعر بأنه يجب أن يغلق القوس المفتوح، وبأنه وصل إلى المحطة الأخيرة، شعور عجيب فيه خلاص ممتزج بألم، شعور ربما يشبه لحظة ظهور الوليد الباكي إلى النور، غارقًا في الدم، بعد مخاض شاق وعسير، يقطعون حبله السري بقسوة، فيصرخ فزعًا ورعبًا.

أشهد أن ألمك الذي وصفت كان حقيقيًّا، وأشهد أنه كان مضاعفًا مقارنة بآلام حكاية يُمنى، ولا أجد تفسيرًا واحدًا لذلك، ربما لأن إعجابك بحبيبة كان أقوى من يُمنى، يمكن لأنك أعجبت بيُمنى الماضي، لا يُمنى الحاضر، بينما أعجبت دومًا بحبيبة الحاضر لا الماضي، بالفتاة القوية المستقلة الذكية، السمراء التي تريد أن تعرف وتتحقق، كنت تعرف أن هناك نماذج كثيرة مثل يُمنى في طبقتها وظروفها، ولكنك فتنت بوجود فتاة جسورة ومحترمة مثل حبيبة، عانت من ظروف تكسر وتقطم الظهر، ولكنها بَنَت شخصيتها بنفسها من جديد، هو أمر يبدو نشازًا عن سياق المكان والزمان والتنشئة.

سأقبل شتائمك بدون تعليق، ولكني أذكرك أنك أنت من منحتني هذا المنهج في التحليل، ولا تنسَ أن ألمي كعقل كان لا يقل عن ألم قلبك ومشاعرك، أنا جزء منك كرهتني أم أحببتني، شغلتني أم عطلتني، ولكنك تأتيني دومًا جريحًا فلا أستطيع أن أفعل شيئًا، أتألم أكثر لأنني أشاهد ولا أستطيع أن أنقذك.

مرت أيامك عادية، لا جيدة ولا رديئة، عدت من جديد إلى الجلوس على شاطئ الحياة الرمادية، استقبلت بدايات العام الجديد بفتور يليق به، لم يشغلك إلا كتاب صدر لك، وزيارات متكررة لمعرض الكتاب، تفكر أنك كنت تبعث دائمًا دعوات زيارة المعرض إلى حبيبة، لها ولأصدقائها وصديقاتها، وربما لـ«بيترو» بالطبع بدون أن تعرف، ولكن لم يحدث مرة أن استطاعت هي أن تذهب إلى المعرض، تكون عادة في عمل متواصل، مرة كان يمكن أن يكون اللقاء الأول بحضورها حفل توقيع لك، كانت تخطط لذلك، ولكنها لم تحضر لسبب عائلي أجبرها على البقاء في البلد، كانت وقتها ما تزال تسكن في الزقازيق.

معقول جدًّا ما كتبته عن حوارك الفاصل معها، تقريبًا جوهر الحوار صحيح، مع ضرورات الفن التي باتت تعجبني فأسلم بها، ولكن دعني أحلل مراوغتها، واتهامها لنفسها بأنها لن تكون زوجة ناجحة: إنها لا تريد أن تجرحك، تريد أن تتهرب من حبك وعرضك الزواج عليها، بدون أن تقول كلمة يمكن أن تزيد من الجراح، لقد أدركت أن النهاية لا شك فيها، فليكن ذلك بأقل الخسائر، ولتتحمل هي سبب الرفض، الذي يبتعد عن الشخص لينتهي إلى مبدأ الزواج نفسه.

أخمن أيضًا أن يُمنى فعلت الشيء نفسه، جاءت في لقائها الأخير معك، لكي تسمعك، كانت في عز علاقة حب، وتستعد للزواج بمن تحب، وكانت تخمن أنك جئت لكي تعترف لها بالحب، ولكن خطتها كانت الادعاء بأنها لا تعرف من تشير إليها في حديثك، وأن الكلام الذي وجهته لها ليس عنها، وكانت تراهن أن هذه اللعبة ستصل إليك فلا تبوح بما جئت من أجله، فإذا بُحت فلن يكون أمامها سوى الكارت الأخير، أن تخبرك بأنها تستعد للزواج بمن تحب، وتطلب أن تبقيا أصدقاء.

لحسن الحظ فهمت أنت اللعبة، فلم تخبرها قَطّ بأنك تحبها، أدركتما معنى اللقاء، فلم يبقَ سوى الضحك الصاخب، مثل اثنين كشفا بعضهما، واحتفظا بموقفيهما بدون خسائر.

امرأتان رائعتان يُمنى وحبيبة، والله، يجب أن تكون فخورًا بأنهما تحافظان دومًا على مشاعرك، وأنهما تريدان صداقتك على الرغم من كل شيء، أما الحب فأنت من علمتني أنه سحر، لا يجب مناقشته أو تفسيره، وإنما يمكن فقط وصفه ورفع أنقاضه.

لم تنسَ أنت حبيبة، ما تزال معك على خط الواتس آب، نصحتُك يومها، لو تذكر، ألا تكتب لها من جديد، ولكنك لم تسمع كلامي، كتبت لها على الواتس آب بعد شهرين أنك لا تكرهها، ولكنك لم تكن تستطيع أن تعيش معذبًا، مرتديًا قناع الصديق، وأن ابتعادك عنها لا يعني سوى أنك لا تستطيع معها إلا الحب، ثم تمنيت لها السعادة التي تليق بها وبعقلها «اللي زي الألماظ».

لم تنتظر ردًّا منها، ولكنها ردت في اليوم التالي، استهلت رسالتها إليك بلقب الأستاذ الذي كرهته، قالت إنك شخص عظيم، وإنها تتمنى لك أن تجد المرأة التي تقدرك، قالت إنها ستظل تحترمك طوال حياتها، وإنها آسفة أن العلاقة انتهت عند هذا الحد، وإنها لم تكن تفضل ذلك.

قالت إنها آسفة لأنها لم تفهم مشاعرك، وإلا لكانت ردت مبكرًا على هذه المشاعر.

لم تعرف بالضبط هل هي تواسيك، أم أنها لم تكن تدرك مشاعرك فعلًا إلى حد الصدمة والمفاجأة عندما اعترفت بحبك لها.

لا زلت تتذكر عبارتها التي وصل إليك صدقها: «مش عايزة أفقدك تاني».

أما لماذا لم تشعر بمشاعرك، ولماذا لم تشعر بأنوثتها على الرغم من كلماتك، فلأن المرأة العاشقة، لا ترى رجلًا غير من تحب، وحبيبة كانت تعشق «بيترو»، تقريبًا في اللحظة نفسها التي بدأت أنت في حبها.

ولكن «بيترو» في ميلانو، هي تقدر صداقتك، لن تحبك أبدًا، ولكن يمكن التواصل عن بُعد، تسألها عن أخبارها وصحتها، تتناقش حول كتب وأفلام، ولكنها لم تعد تلبي أي دعوات، لا تريدك أن تتورط مرة أخرى، في مناسبة واحدة وافقت سعيدة على أن تحضر لها مجموعة كتب إلى الشركة، في مقدمتها كتابك الأحدث.

ـ ما ارفضش الكتب أبدًا، يا عم ده مفيش غيرك أساسًا اللي مهتم يجيبلي كتب.

ـ عشان مخك نضيف وغلباوية.

□ -

ـ الصورة اللي ع الواتس آب دي بتاعتك؟

ـ أيوه قلعت الحجاب، مستغربة نفسي شوية، بس مبسوطة.

ـ سيلفي جميل يا حبيبة، وإنتِ زي القمر.

ـ ربنا يخليك.

ـ بكرة هاجيلك الشركة واسيب الكتب في الاستعلامات.

ـ لأ عايزة أشوفك، قولّي ع الواتس آب لما تقرب م الشركة أنزلك.

لطالما نزلت حبيبة من قبل لتستقبلك قبل مدخل الشركة بأمتار، تشكرك وتتكلمان قليلًا، ثم تعود هي إلى العمل، رائعة ملهمة، كنت دومًا تراها كذلك، وكانت تستحق.

التقيتما في اليوم التالي، نزلت إلى مدخل الشركة، صارت مختلفة بدون حجاب، ولكنها لم تفقد سحرها، صارت فتاة عصرية تمامًا، امتلأت قليلًا، بدت أخيرًا وكأنها تودع النحافة الزائدة، روحها المعنوية مرتفعة، وصوتها المميز يسأل في مرح:

ـ إوعى يا عم تنسى توقيعك على كتابك، عندي كل الكتب بتاعتك وعليها توقيعك.

قلت لها:

ـ جايبلك كمان كتب في الفلسفة عشان إنتِ تستاهليها، إنتِ أكتر واحدة غلباوية عرفتها في حياتي.

ضحكت ضحكتها المذهلة، وغابت عن أنظارك، كان ذلك لقاءكما الأخير.

لا أعرف بالضبط ماذا كنت تنتظر أو تتوقع منها، تسأل عنها وقت أمطار غزيرة، فترسل لك صور حجرتها الغارقة، فتعرض أن تزورها على الفور للمساعدة، فتقول لك بعد أن تشكرك إنها أحضرت فعلًا من يقوم بنزح مياه الأمطار.

كورونا وأيامها، لا تتوقف أنت عن إرسال مشاهد ساخرة تهون عليها مشاعر الخوف.

مش عارفة هتنتهي الحكاية دي إزاي، خايفة على ناس كتيرة أعرفها، وكمان هيقفلوا البلد، ما باطلعش تقريبًا من الشقة، من البيت للشركة بامشي خمس دقايق، ولابسة كمامة في الشغل.

تقول لك إنها لم تعد تكتب شيئًا على فيسبوك.

ـ ليه؟ زعلانة مع مين يا حبيبة؟

ـ ولا مع حد. مشغولة في الشركة.

ـ مش عايزة أي حاجة؟

ـ سلامتك.

ـ طيب طمنيني عليكِ دايمًا، ولو عايزة أي كتاب قوليلي اسمه بس.

ـ حاضر.

صرت فعلًا أقرب إلى العم أو الخال، وكنت راضيًا بذلك، قررت أن تقلل من التواصل حتى يسهل الانسحاب، ولكنك لم تفوت التهنئة بعيد ميلادها:

ـ كل سنة وانتِ طيبة وبخير وسعادة يا حبيبة، ودايمًا مشرقة وتحققي كل اللي تتمنيه.

ـ وانت طيب يا رب، إنت فاكر عيد ميلادي؟

ـ بكل تأكيد.

غبت عنها شهورًا بدون تواصل، كنت تعد نفسك لفراق هادئ، لا عودة بعده في أي وقت، ولكنك لم تتوقع قَطُّ مفاجأتها الأخيرة:

ـ عيد سعيد يا حبيبة، بلاش تكتري م الفتة واللحمة، كل سنة وانتِ طيبة يا جميلة.

ـ وانت طيب وبخير يا رب.

ـ عاملة إيه؟

ـ بخير الحمد لله.

ثم بعد مدة وكأنها تفكر كيف تكتبها:

مش عارفة انت عارف ولا لأ؟ أنا اتخطبت.

لم تتوقع أمرًا كهذا، ولم تعرف طبعًا، ولكنك كتبت فورًا قبل أن تفكر:

ألف مبروك، ربنا يتمم بخير.

كلمات ذكرتك على الفور بكلمات مشابهة كتبتها على صفحة يُمنى بعد أن نشرت صورتها مع زوجها، صرت معتادًا على كلام المناسبات، أحسنت يا أستاذ.

لم تسأل حبيبة قَطُّ عن اسم العريس، قلت في نفسك شاعرًا بالعبثية: «كل العرسان سواء ما دمت لست أنا العريس»، وضحكت من فكرة أن «وشك حلو» على من تحبهن، حيث يجدن العريس الذي انتظرنه منذ سنوات طويلة بعد أن تحبهن بفترة قصيرة، أو في الوقت نفسه الذي تحبهن فيه.

حاولت أن تبتسم أو تضحك من جديد فلم تستطع، تخشبت العضلات المسؤولة عن الضحك والابتسام، ذهبت لترى وجهك في المرآة، فوجدت قناعًا جامدًا بدون أي تعبير، بقية ونهاية الحوار، العم يظهر من جديد:

ـ وخلِّي بالك، الكورونا لسه موجودة.

ـ أنا ما باخرجش تقريبًا من بيتنا.

ـ إيه؟ روَّحتي الزقازيق؟

ـ لأ ما باخرجش قصدي م الشقة.

ـ تمام.

الحوار الأخير، لا تنسَ التفاصيل، ولا تنسَ أن شعور الهدوء كان أكبر من شعور الصدمة، لم تكن قَطُّ لك، وهناك من يعبث فيكرر حكاياتك.

ولكنك صدمت عندما رأيت صورتها على الواتس آب مع العريس بعد شهور من آخر تواصل معها، كانت تنظر إلى العريس معجبة والهة، وينظر إليها سعيدًا منتشيًا، لم يكن سوى «بيترو»، عاد إلى القاهرة وتزوجها، وعادت هي إلى صفحتها على فيسبوك بصور الزواج، وصورهما أمام مكتب توثيق العقد في وزارة الخارجية، ومئات اللايكات، وعبارات التهاني، وبوست طويل كتبته حبيبة عن تجربتها الأولى الفاشلة، وعن شعورها بالهوان والألم، وبإحساسها، وقتها، بأن الله يعاقبها، وبأن حياتها انتهت.

حكت كيف بدأت من جديد، ولم تتخلَّ عن إيمانها، عن درس حكايتها، عن الحب الذي جمع الإيطالي بالمصري.

لم يصدمك أنها تحب، فقد تغيرت هيئتها تمامًا في الشهور الأخيرة، وفي لقائك الأخير كانت في حالة حب واضحة، ولكن المفاجأة في عودة «بيترو» بعد عام كامل إليها، وزواجها منه في القاهرة، هذا

حب عظيم وجدير بالاحترام، أقدر لك كلماتك ساعتها على الرغم من ذهولك وغيرتك، كنت مثل من هُزم فريقه أمام فريق عظيم، وفي مباراة استثنائية لا تتكرر.

كنت دومًا عادلًا، فحاول أن تكون كذلك حتى النهاية، أعرف أنك لا تحب أن تحقد أو تكره، تقول إنها مشاعر تدمر صاحبها قبل أي أحد، ولكن ذهولك سببه أن حكايتك الفاشلة لها وجه آخر ناجح لم تكن تعرفه، وأنك كنت تخطط سيناريو ألغاه سيناريو آخر غامض لا تعرف كاتبه، تركك تلقي أوراقك، ثم أخرج من كمه الولد، فـ«قش» في لحظات.

حزنك لفترة لأن حبيبة يمكن أن تخبر صديقًا عن حبيب أو شخص تعشقه، ولكنها لن تخبرك أنت لأنك أحببتها، ولأنك قلت إنك تحبها، هذا عقاب لأنك انتقلت فجأة إلى خانة العشق والهوى، فصرت غريبًا لأنك اقتربت، فاحترقت.

هذا الحب له أكثر من وجه، خيط عندك، وخيط عند حبيبة، وخيط ثالث عند «بيترو»، ولا أحد يريد أن يؤذي أحدًا أو أن يجرحه، ولكن هناك من يعبث ويلهو بالجميع، وحكاية فشلك في أن تجعل حبيبة تحبك، هي أجمل قصة نجاح في الحب من زاوية حبيبة و«بيترو».

ما قلته من قبل بأنك لا تعرف قصة حب ناجحة إلا في الروايات أو على الشاشات، ليس صحيحًا، فها هي ذي قصة حب تتشكل في الوقت نفسه بدون أن تعلم، بل يجب أن تعترف بأنها انتهت نهاية عظيمة ومدهشة: شاب طاف العالم، عاد إلى حبيبته، وفتاة انتظرته عامًا تروض غلبًا وإحباطًا واكتئابًا وأحلامًا، حتى وصل إليها حبيبها، فتزوجا، و«توتة توتة فرغت الحدوتة».

«بنيلوبي» انتظرت عريسها، رفضت كل الخُطاب، وفكت نسيجها عشرات المرات، لم تنتهِ من الثوب إلا عندما حضر «بيترو»، لم ترد أن تجرح صديقها، العم الذي تعزه وتقدره، «امرأة أحبت وكفى»، كما قال توفيق الحكيم في نهاية مسرحيته الخالدة التي جعلتك تعشق الفن وتكتشف سحره: في «أهل الكهف» ذهبت العاشقة إلى الكهف لتبقى مع حبيبها، لم تشأ أن تتركه يعود وحده إلى كهفه، صارت مغتربة مثله إذا تركها، أوصت بإغلاق الصخرة عليهما، وطلبت أن يذكروها بصفة واحدة فقط: «كانت امرأة أحبت وكفى»، الحب يصنع الأساطير، وليس المعجزات فقط.

قلت لنفسك كثيرًا، سأستعد ليوم كهذا، أصبحت رفيق الحزن والفراق، «مدد يا «فيرتر» مدد»، قلت لنفسك إنك أصبحت مروض وحوش الاكتئاب، صار الألم يشعر بالملل من صبرك واحتمالك، قلت إن معجزة ظهور حبيبة يمكن أن تتكرر، يمكن أن تظهر غدًا سلوى أو ليلى أو نجوى أو «ماتيلدا» أو عزيزة أو مديحة أو فريدة.

الأسماء، وماذا تعني الأسماء؟

ولكني أعرف أكثر من أي أحد أنك لن تعود أبدًا كما كنت، تؤلمني عندما تقول عن حق إن خسارتك الكبرى أنك فقدت أفضل امرأتين عرفتهما مرتين لكل واحدة: فقدت يُمنى كحبيبة وكصديقة، وفقدت

حبيبة أيضًا كحبيبة وكصديقة.

هذه لعبة كالمقامرة، أوافقك وأرثي لك، هل رأيت عقلًا يبكي؟!

فعلتها ذات ليلة، تركتك نائمًا، وأخذت أبكي في الصالة، تتساقط أفكاري الحزينة، تلمس الهواء فتصير ماءً مالحًا، وعندما استيقظت أنت كانت الدموع قد وصلت إلى مخدتك.

تعرف لماذا أعنفك من أول الكتابة؟ لماذا أكرهك وأنتقدك وأنتزع منك السرد لأحكي رغمًا عنك؟

لأنك جعلتني أحب الحب، أردت أن أحب مثلك، لا يهم العذاب، المهم أن أعرف هذه اللذة الغريبة، أما عن فكرة المقامرة ووجود الولد الذي «يقش» فقد قرأت وعرفت أن الحياة نفسها مقامرة، وأنه عندما اختار الإنسان طُرد من الجنة، وعندما لم يختر أحب فتعذب، قدر أم اختيار؟ الاثنان معًا، والعذاب متصل، لا يتغير في الحالتين.

سكة عذاب عانيتها معك، وحسدتك عليها، لا أعرف إلا المنطق، أريد جنونًا مثلك يليق بعاشق، من أُحب وكيف؟ أحببت عشقك لحبيبة، وعشق «بيترو» لحبيبة، وعشق حبيبة لـ«بيترو»، وعشق يُمنى لزوجها، أحب العشق والعشاق، أريد أن أهيم شوقًا، وأن أنسى المنهج والأفكار والتحليل والسبب والنتيجة، لا أريد أن أكون عقلًا، أحب أن أجرب أن أكون عاطفة عمياء وحمقاء، ترى الجحيم وتتجه إليه.

«كيوبيد» هو العاطفة كما جسدها الخيال، هو لا يعبث وإنما يستجيب لطبيعته، هكذا خلق، قلب يبحث عن آخر، وبينهما سحر خالص، العاشق نفسه لا يعرف ماذا حدث له، لحظة انكشاف صوفية، معرفة ليست كالمعرفة، معرفة حدس وبصيرة وعاطفة، لا أثر فيها للعقل.

لكني خفت أيضًا أن أصبح مثلك، على الرغم من شوق جارف للجنون، رأيتك تتألم، تقول إن الحياة عادت رمادية، وإنك سئمت أن تأكل التفاحة فتجد نفسك عاريًا غريبًا على الأرض، سئمت أن تقف على الشاطئ، تريد أن تلقي بنفسك في البحر حتى لو غرقت.

لا تغضب من كلامي وانتقادي، أنا أحب حتى ضعفك، وأنا من أردت لك أن تكتب، أعترف بأن أصدقاء شاركوني الرغبة نفسها، وألحوا عليك، ولكني وحدي من جعلتك تمتلئ بالأفكار، لم أتركك لحظة بدون فكرة، رتبت معك الذاكرة والأحداث، وجعلت فكرة واحدة تلد مائة فكرة، أعدتك إلى الكيبورد بدون أن تعرف أنت بالضبط ماذا ستفعل. لا تعرف شيئًا سوى أن أصواتًا تنبعث بداخلك، تتصارع ويعلو صوتها، تريد أن تخرج في شكل حروف وكلمات.

لا تصدق أنني أرفض أن تتجاوز الواقع، أريدك أن تصنع العكس تمامًا، أن تتحرر من الواقع، أن تخلقه فنًّا، أن تروضه وتتصالح معه، ليعود إليك طعم الحاجات.

كنت أستفزك بكلماتي لكي تكتب نفسك، وتكتب يُمنى وحبيبة، لكي تصنع منهما نماذج أدبية، وحكايات باقية.

أردت أن أصالح الواقع على الفن، على الرغم من التسليم ببقاء الجرح الذي لن يندمل، والكسر الذي أبدًا لن يمكن إصلاحه.

والآن، وبعد أن نجحت قليلًا في مصالحة حكايتك عليك بالكتابة، أريد أن نكمل هذه المصالحة، حتى السطر الأخير.

يمكنك أن تتوقع ما حدث، وأن تتخيل ما لم تقله قَطُّ حبيبة.

مختتم

في الليلة نفسها التي التقى فيها صاحبنا للمرة الأولى مع حبيبة، عادت هي إلى الشقة، فوجدت ضجيجًا في الشقة المقابلة، صوت خبط ونقل أثاث، وبابًا مواربًا لا يظهر من خلفه أي شيء، عادت حاملة كتبًا أعطاها لها صديقها الجديد.

خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، وتبادلت حديثًا ضاحكًا مع رفيقتَي السكن، كانتا تتابعان حلقات «لعبة العروش»، التي ترفض حبيبة أن تشاهدها على الرغم من إلحاح الزميلتين.

قالت سميرة:

ـ طب تعالي بس شوفي حلقة ما تخافيش، التنين مش هينط ياكلك يعني، إحنا كبرنا على الخوف ده.

ردت حبيبة وهي تبتسم:

ـ يا بنتي ولا ميت تنين أصلًا يخوفني، أنا ما باحبش الهجص ده، ومعنديش دماغ، راجعة مسحولة، وإيه الخبط والرزع اللي قدامنا ده؟

ـ واد خواجة لسه ساكن جديد بس زي القمر، مش خواجة أوي يعني، ده كلمنا عربي مكسر، ضحكنا أوي أنا ولميا.

تمتمت حبيبة على مضض بكلمتها المعتادة، وبدون اهتمام:

ـ ماشي، على فكرة الكتب دي كلها قراءة عامة، يعني لينا كلنا، بس مفيش واحدة تاخد كتاب واحد، استعارة بس، إن شالله يتمر فيكم.

قالت لميا:

ـ مش فاضيين دلوقتِ، تعالي والنبي شوفي المشهد ده.

مللًا انضمت حبيبة إليهما، بعد دقائق، شدَّتها الأحداث والكائنات العجيبة، وسط المشاهدة، سمعن جرس الباب، أشارت لميا وسميرة تجاه حبيبة لكي تفتح الباب، تركت حبيبة كرسيها متأففة، فتحت الباب لتجد أمامها «بيترو».

بعد «مسااا الكير»، قال لحبيبة إنه يبحث عن «جاكوش»، فردت ضاحكة إنهن لا يمتلكن شاكوشًا، ضحكا معًا، ثم تركها ليعود إلى معمعة ترتيب الأثاث والصور. فلما عادت حبيبة إلى مقعدها، كانت قد فتنت إلى الأبد بأمرين: مغامرات «لعبة العروش»، ولهجة الساكن الجديد المتكسرة.

يومًا بعد يوم عرفته أكثر، قال «بيترو» إنه يذهب يوميًّا إلى الجامعة الأمريكية لتعلّم العربية، يمكنهما أن يقطعا الطريق نفسه، ثم تتركه هي قبل ميدان الدقي، حيث يقع في شارع جانبي مقر شركتها، لم تتردد في الموافقة، قال أيضًا إنه يحب المشي، ويريد أن يتقن العربية بالثرثرة والحديث الدائم، وليس على مقاعد الدراسة.

تعودا أن يكررا المشوار نفسه يوميًّا، يحدثها عن حبه للرياضة، وعن التجديف، وعن الرحلات الخلوية، وعن ولعه بمصر منذ الطفولة، وعن شغفه بالحضارة المصرية، وتحدثه هي عن حياتها السابقة، وعن أحلامها، وعن دراجتها التي ربطتها بالجنزير والقفل في بير السلم، وعن حلمها بأن تطور قدراتها ومعارفها.

يعزمها على وجبة سريعة، تعزمه على عربة فول، تأخذه للمرة الأولى إلى مقهى «بوتشيلي»، تقول له إن صديقًا أعطاها كتابًا شيقًا، تقرأ له بصوتٍ عالٍ وعلى مهل، يكتب أحيانًا، ويكرر الكلمات في أحيان أخرى.

ذات مساء تدخل لصديقها القديم على الواتس آب، تحدثه عن كتابه الذي قرأت منه لأحد الأصدقاء، يفرح ويبتهج، تحدثه عن حلقات «لعبة العروش»، التي حمَّلت حلقاتها كلها بكل الأجزاء، تندهش لأنه لم يشاهد حلقة واحدة، تقول إنها كانت مثله، حتى شاهدت إحدى الحلقات فصارت ممسوسة باللعبة، وعروشها، وشخصياتها، وكائناتها الخرافية، يقول لها إنه سيشاهد الجزء الأول فقط «عشان خاطرها»، تكتب تعليقًا سريعًا:

أيوه كده، عاش يا عم.

يكرس عدة أيام للمشاهدة، لا تستهويه الحلقات عمومًا، ويجد فيها مزيجًا غريبًا ومتنافرًا، ومع ذلك يكتب لها رأيه بالتفصيل، وتوقعاته للجزء القادم، كان سعيدًا لأنه شاركها مسلسلًا تحبه، وكانت سعيدة لأنها أقنعته بالمشاهدة، بدا كما لو أنها وجدت صديقًا جيدًا، أما «بيترو» فقد تعودت عليه، رفيق رائع، وشخص مختلف.

ذات يوم أخبرها «بيترو» بأنه سيقوم برحلة خلوية مشيًا على الأقدام من القاهرة إلى طنطا، استغربت الفكرة كثيرًا، كانت ستسافر لقضاء إجازة عيد الأضحى مع أسرتها في الزقازيق، ولكنها تحمست جدًّا للتجربة الجديدة.

ما تزال تتذكر سعادتها وصورها في شرم الشيخ، وفرحة سميرة ولميا بإعطائها ملابس مناسبة للجو، تريد دومًا أن تكسر المألوف؛ دراجة، شركة في القاهرة، لا تنقصها إلا مغامرة طويلة على القدمين مع «بيترو»، أفضل رفيق في رحلة الشركة اليومية.

لم يوافق والدها على الفور، إنه يحبها، ابنته البكرية، ولكنه لا يرى في رحلة من هذا النوع إلا ضربًا من الجنون: ولد وبنت يسيران بلا توقف مع شريط السكة الحديدية، يعرف أن حبيبة عنيدة،

وأنها ستفوز في النهاية، ويعرف أن معاناتها السابقة كانت صعبة، تستحق فرصة أخرى، هو نفسه سعد دومًا بنشاطها الاجتماعي، وبتلبيتها لاحتياجات من يطلبون المساعدة، يعرف أيضًا أنها ذكية وقوية عند اللزوم، وافق بعد عذاب على مضض.

في الرحلة عرفت حبيبة «بيترو» الحقيقي، بدا كما لو كان رجلًا شرقيًّا ولد في نابولي، جدع ومغامر ولا يتراجع أبدًا، استوقفهما رجال الشرطة أكثر من مرة، وشعرا بالتعب حتى الإنهاك مرات، ولكنهما أكملا الرحلة حتى النهاية.

وجد فيها «بيترو» بنتًا شرقية غربية ترتدي الجينز والحجاب، شخصية قوية مستقلة، وكأنها تعودت منذ طفولتها على رحلات الكشافة، وعلى سنوات الغربة، وعلى الاعتماد على النفس، كانت أيضًا فاتنة، سمراء وجميلة ورشيقة، تحب الرياضة، وتحلم بأن تكون أفضل في المستقبل، وحكاءة مدهشة، شهرزاد جديدة، أو لعلها حفيدتها المصرية.

صار «بيترو» رفيق حبيبة الدائم، عندما فكرت أن تزور مع صديقها القديم الصحفي الكبير، المهتم بالفولكلور والتراث المصري، اقترحت على الفور أن يكون «بيترو» معها، ووافق هو على الفور، ولكن ظروف عملها أفسدت الزيارة للجميع، لها ولـ«بيترو» وللصديق القديم.

لكن شيئًا جديدًا ولد، قصة إعجاب بدأت بمشاركة المشي، وانتهت باعتراف الطرفين لبعضهما بالحب.

لم تكن الصداقة إلا حبًّا متنكرًا، أخذ وقتًا لكي يتبلور ويعلن عن نفسه، ذات مرة دفعها «بيترو» دفعًا وهما في الطريق إلى أحد محلات البيتزا لكي يعزمها، وبعد أن أكلا، صارحها بحبه، فأعلنت في سعادة طفلة:

ـ ياه أخيرًا، وأنا كمان باحبك.

يوم أن كان صاحبنا يتعثر في أقدام سيدة سينما «الزمالك» لكي يحضر لحبيبة زجاجة مياه معدنية صغيرة، كانت هي غارقة في محبة «بيترو» الغامرة، وكانا يحضران معًا كل المناسبات: جلسات على المقهى لمشاهدة مباريات كأس العالم، رحلة إلى وادي الحيتان، وأخرى إلى أسوان، ثم دعته حبيبة إلى زيارة أسرتها، «بيترو» وأصدقاؤه الأجانب الذين يسكنون في العمارة، ذهبوا جميعًا في زيارة إلى الزقازيق.

تحدثت مع أسرتها عن «بيترو»، أحبوه لأنه صار مصريًّا وخواجة في الوقت نفسه، ولكن العام الذي قضاه انتهى، لا بد أن يعود إلى إيطاليا، ثم يرجع إلى القاهرة، لإتمام إجراءات الزواج.

كان صديقها القديم يقترب أكثر، أحست حبيبة بأنه على وشك أن يعترف لها بحبه، ذلك المساء عندما أوصلها إلى شقتها، كاد أن يقول لها: «باحبك»، قالت على الفور: «ما تقولش»، عندما دخلت شقتها

فكرت أن تبعث له على الواتس آب لتقول له: «أنا هاتخطب قريبًا لصديقي الإيطالي «بيترو» الذي تعلم العربية».

كتبت بالفعل كلمتين أو ثلاثًا، ثم مسحتها فورًا، أشفقت على الصديق الودود من الصدمة، وهي التي عرفته مأزومًا، شاهدته والجرح ينزف، لا تريد أن تكون سببًا في بؤس آخر، ستترك الأمر للظروف، وستحاول أن تتحمل فراق «بيترو» المؤقت.

في اليوم نفسه الذي طلب فيه الصديق القديم أن يلتقيها، كانت حبيبة طوال اليوم مع «بيترو»، تناولا الفول والطعمية في الحسين، وودع هو المساجد والمقاهي والحوانيت والزحام، ثم ذهبت معه إلى المطار، قبل أن يتركها كانت الدموع في العينين بدون مقدمات، التقطا صورة، وعادت حبيبة لتجد رسالة الصديق القديم الغاضبة.

أحست للمرة الأولى بالذعر والرعب، في يوم واحد فقدت حبيبًا غادر ولا تعرف متى سيعود، وستفقد أيضًا صديقًا قديمًا كان يدعمها، شعرت بأن حبها أنساها صديقها، أصرت على أن تقابله، وذهبت إلى مسرحية «مسافر ليل» وهي في أسوأ حالاتها، كانت كما لو أنها قادمة من جنازة لكي تشيع جنازة أخرى.

لكنها عادت منتصرة، أجلت مؤقتًا مواجهة محتومة مع صديق يريد أن يكون حبيبًا، وتواصلت عبر الكمبيوتر مع الحبيب الغائب في رحلة من المغرب إلى نابولي، استعادت نشاطها وحيويتها، وخصوصًا مع وصول «بيترو» سالمًا إلى بلده، اتصل بها في ليلة الوصول نفسها، قال لها إنه سيعود مع شهور العام الجديد الأولى.

في رأس السنة، لم تستطع لميا وسميرة السيطرة على فرحة حبيبة، صوروها وهي ترقص وتدور حول نفسها، صارت عروسًا تنتظر عريسها، كتبت على الفيسبوك عن مشاعرها الصريحة نحو «بيترو»، أهلها وصديقات مقربات كانوا يعرفون، وكانت تعليقاتهم تتمنى لها السعادة، قالت بكل بساطة إن« بيترو» هو أول رجل يجعلها تحس بأنوثتها.

على الخاص كانت تنتظرها غضبة الصديق، واعترافه للمرة الأولى بأنه يحبها، لم تتفاجأ بمشاعره، ولكنها تفاجأت لأنها كانت متأكدة أنه ـ مثلها ـ سيحافظ على قناع الصداقة لوقت أطول مما قدَّرت وتوقعت.

لم ترد أن تجرح صديقها بحكاية «بيترو»، واصلت لعبة رفضها للزواج عمومًا، كذبة بيضاء أفضل من كارثة، سيعرف الصديق بالتأكيد الحكاية كلها، ولكن لا يجب أن يعرفها عن طريقها هي.

انقطاع لمدة شهرين، ثم رسالة تفسير من الصديق القديم على الواتس آب، أدهشها تصرفه، وأدركت أنه ربما اقتنع بالعودة إلى الصداقة، وخصوصًا أنه هنأها بعد ذلك بعيد ميلادها، لم تتخيل قَطُّ أنه ما زال يحفظ تاريخ ميلادها.

تلفون من نابولي. يحدثها «بيترو» عن كارثة إنسانية في بلده، مئات الضحايا بسبب وباء غامض اسمه «الكورونا»، سيتم إغلاق مدن وأقاليم بأكملها، لا طيران ولا سفر، لن يستطيع العودة إلى مصر قريبًا، ولكنه ما زال عند وعده بالحضور.

عندما عامت شقتها في مياه الأمطار، وعندما كان الصديق القديم يطمئن عليها، كانت إيطاليا قد غرقت في الوباء، ولكن «بيترو» كان يتواصل معها يوميًّا، يراها وتراه، يطمئن عليها ويتشاركان حكايات المشي وعربات الفول، جلسات «كوستا كوفي»، ومغامرات السير على الفلنكات، كان حبهما أقوى من المسافات، وأعظم من الكورونا.

حكت له عن صديقها الذي تقدره ولكنه وقع في حبها، وافقها «بيترو» فيما فعلته، قال إنه يقدر العاشقين، ولا يراهم مذنبين في مشاعرهم، حذرها من أن تؤذي عاشقًا، وأن تترك الأمر للسماء.

لكن «بيترو» أوصاها أيضًا بأن ترفض كل الخُطاب مثل «بنيلوبي»، فقالت حبيبة:

ـ وحياة مامتي ما اعرف مين دي؟

فحكى لها عن «الأوديسا»، عن «بنيلوبي» زوجة «أوديسيوس» الوفية، عن رحلته العظيمة في طريق العودة إلى «إيثاكا»، وعن قطعة نسيج لم تكملها «بنيلوبي» قَطُّ، حتى تدعي أنها مشغولة طوال الوقت هربًا من العرسان، تخيط ثم تفك ما خاطته، حتى عاد «أوديسيوس» إلى «بنيلوبي».

وقتها بالضبط كان الصديق القديم يفكر في أن يسأل على فترات متباعدة، لكي يسهل عليه الانسحاب من حياة حبيبة إلى الأبد، كانت رحلة المشي على قلبه قد وصلت إلى المحطة النهائية.

عاد «بيترو» أخيرًا، لم تكن هناك خطوبة، تزوج من حبيبة فورًا، لم تنسَ توثيق الزواج في الخارجية، ولم تنسَ صورتها معه أمام لوحة عن استلام التوثيق في اليوم نفسه، عادت ابتسامتها القديمة متألقة ومشرقة، تذكرت معاناة السنوات الطويلة الماضية، تذكرت تمسكها بالأمل والمغامرة، وأصرت على التقاط صورة زفاف عادية بدون فستان أبيض، في استديو تصوير في الزقازيق.

كانت قد لاحظت أن رسائل الصديق القديم توقفت بعد أن أخبرته بأنها خطبت وستتزوج، عندما دخلت على صفحة صديقها القديم بعد عدة شهور وجدته يكتب في ألم:

لو ضروري تسيبني خد مني الحنين.

صفحته حافلة بالأسى، وبمحاولات لكتابة جمل قصيرة مثل أبيات قصائد «الهايكو» اليابانية، تلخص الحكاية كلها، فقرات من دفتر العواطف:

قالت لي إنني إنسان عظيم

تمنيت ألا أكون

لكي أسكن قلبها

***

على الشاشة يبكي «فان جوخ»

صوت «البوب كورن»

يجعلها تعزف موسيقى حزينة

***

تتأخر فأستدعي أغنية «جميل واسمر»

***

«الأستاذ» كره صادقًا كل ألقابه

هذا اللقب سور مخيف

***

هذه الابتسامة تقتلني

وهذه الضحكة تبعثني من جديد

***

«كوستا كوفي»

حوار طويل

توصيلة

أحلام تكفي أسبوعًا

***

لا أحتاج أي ترضية

أحتاج النسيان

***

تقول صادقة: «لا أريد أن أفقدك»

أقول لها: «أصبحت صديقًا للفقد»

***

ماذا تبقى؟

رسالة اعتذار صوتية

***

في لحظة ما ظننت أنها خرجت من رواية

***

على المقهى

تشرب الشاي

فتتثاءب

***

تطلب توقيعًا على كتابي

فأنسى الحروف

***

كانت ملهمة

وكانت تعرف

***

لم تجمعنا صورة

صورتها في قلبي

***

ليتها كانت بالكتابة

لن يكتبها مثلي

***

تلك الكتب لكِ

أحسدها لأنها ستكون معكِ

***

ألبوم

تُقسِمين إنك سمراء بسبب الشمس

***

موعد

مغادرة

تبكين

هذه الدموع غالية

***

لم أمتلك قلبي

لم أمتلك قلبكِ

***

سفر

وداع

يتيم حتى تعود

***

الشيطان في التفاصيل

الشيطان في القلوب

***

هذا الجرح قديم

هذا الفيلم يكرر نفسه

***

عيناها حزينتان

تقول إنه سافر

عندما عادت إلى خانة الحالة على الواتس آب، وجدت صديقها يكتب اقتباسًا من الفيلم اليوناني «بريطانيا الصغيرة» يقول: «ما نفقده في الحياة أكثر بكثير مما نحصل عليه، وما نفقده يظل يؤلمنا إلى الأبد».

كانت حائرة وحزينة، ولكن بدون أي شعور بالذنب، تركت الأمر للزمن، لديه أيضًا معجزات مثل الحب، وبينما كان «بيترو» وحبيبة يبدآن حياة جديدة، وبينما كان الصديق مكتئبًا، كان «كيوبيد» يحلق في الفضاء مبتسمًا، لأن الحكاية بأكملها قد رويت بشكل خاطئ، بينما كان يفترض أن تروى أساسًا من وجهة نظر «كيوبيد»، صاحب السيناريو الأصلي.

وجد «كيوبيد» نفسه ذات صباح في عالم غريب، شوارع مزدحمة، وكلاكسات سيارات، طلاب مدارس، وأتوبيسات متوقفة، كان جائعًا، فطار بجناحيه إلى مخبز، واختطف بعض الخبز اللذيذ، شبع بسرعة، لا أحد رآه، اكتشف أنه كائن شفاف في مدينة لا يعرف أهلها إلى أين هم ذاهبون.

بينما كان طائرًا في الهواء رأى رجلًا خمسينيًّا في طريقه إلى السينما، عاودت «كيوبيد» شقاوته، فأخذ سهمًا وأطلقه على الرجل، لم يشعر الرجل بشيء، ولا حتى بوخزة ألم، ولكن حياته بعدها لم تصبح كما كانت.

بعد أيام، كان «كيوبيد» في شارع مجاور، لمح شابًّا وفتاة يتبادلان حديثًا طويلًا وممتدًّا، رماهما عابثًا بسهمين، بعدها كان الشاب يدفع الفتاة إلى محل بيتزا.

يضحك «كيوبيد» ويؤكد أنه لم يكن يلهو، كان يقصد أن يكتشف البشر أن هناك قوانين يعرفونها ولكن هناك سحرًا لا يعرفونه فوق القوانين، وأن اللعبة تسير على المنوالين.

لا توجد قصة لها وجه واحد، وهناك أشياء لا يمكن تفسيرها، سحر خالص، الحياة ليست كلها مرئية، وليست كلها مفهومة، وليس لهذه اللعبة من نهاية إلا بالموت.

وراء كل سيناريو هناك سيناريو آخر يُكتب في الوقت نفسه في مكان آخر، ولا تعرف كاتبه.

يعرف صاحبنا الآن أنه لن يعود أبدًا مثلما كان من قبل، ولكنه يعرف أيضًا أنه سيكتب أخيرًا حكاية عن الحب والفن والواقع، وأنه ليس مطالبًا بفك ألغاز قديمة، ولكنه مطالب فقط بأن يضع النبيذ القديم في إناء جديد.

شعر بالرضا عن نفسه على الرغم من الألم العظيم، عندما تذكر كلمات رسخت في ذاكرته من «آلام فيرتر» الجديرة باعتذاره: «قلبي هو مصدر كبريائي وإعجابي ومنبع كل شيء فيَّ! هو منبع كل قوة وكل غبطة وكل ألم. العلم الذي أعرفه يستطيعُ كل إنسان أن يجمعه ويُحصِّله، ولكن القلب الذي أحمله لا يتسنى لغيري أن يحمله».

قرر أن يقنع بأن يعود مؤقتًا، ومن جديد، للوقوف على شاطئ الحياة، ولكنه لن يتنازل أبدًا عن حلمه الدائم، بأن يغرق مبتسمًا في المحيط.

الإهداء

إليها.

ملحق

خطاب نديم إلى صديقه الناشر

عزيزي كمال،

ليس سرًّا أن هذه الرواية كتبت في عز الآثار المؤلمة لقصة حب فاشلة عشتها، كنت أعرف نهايتها منذ وقت مبكر، ولكنها استمرت، تحت مظلة الألم والأمل، لمدة تقارب الخمس سنوات، هي الحكاية الموجودة في النص باسم بطلتها حبيبة.

لذلك يمكن القول إن الرواية، هي أصعب ما كتبت من أعمال، ولكنها، وهنا وجه المفارقة العجيبة، كانت من أسرع ما كتبت إنجازًا، وأقصره وقتًا، ومن أكثر النصوص سهولة في سردها، فما إن أمسكت طرف الخيط حتى انهمر سيل الحكاية بكل تفاصيلها، وحتى اختلط الواقع بالفن، إلى درجة أنني قلت لصديق عزيز، هو أول من استقبل الصفحات الأولى للكتاب:

ـ أنا الآن أكتب بطريقة لم أعهدها من قبل، لم أجهز شيئًا، ولم أصطنع تبويبًا، خلاص «عفقت» النص، الوعي فقط يحدد أحجام كل فصل، هو تحديد تقريبي وحر أيضًا، أردت كتابة رواية مستلهمة من قصتين عشتهما، ولكن الرواية هي التي كتبتني وفضحتني.

جاءت حكاية حبيبة مباشرة بعد أن أغلقت ملف حكاية يُمنى، التي استمرت صورتها في ذهني لسنوات، تتوسطها فترة انقطاع طويلة عن التواصل. وحبيبة ويُمنى نموذجان متفردان، أو على الأقل هذه رؤيتي حتى الآن لهما، ولكن الكتابة عنهما تختلف عن حقيقتيهما في الواقع بالطبع، ولولا أن قصة حبيبة كررت تقريبًا قصتي مع يُمنى ما استدعيتها، كنت أظن أنها تحتاج إلى عمل مستقل، لأنها أيضًا شخصية متفردة، ونموذج أدبي ونسائي خاص يستحق أن يُكتب.

ولكني لم أكن أتوقع أن أكتب وأنا في ظل أزمة جعلت العالم بالأبيض والأسود، بعد أن كان ملونًا، خفت فعلًا أن أموت وأنا على قيد الحياة، أي أن أعيش والسلام غير شاعر بألوان وطعم الدنيا، وتخيلت أنني لن أكتب حرفًا بعد الآن، أو أنني يمكن أن أدمر كل ما كتبت من موضوعات من قبل في لحظة ضعف ويأس.

تصورت في البداية أنني تعودت على الفراق والفشل، وأن قصة حبيبة لن تؤثر فيَّ مثلما حدث لي بعد قصة يُمنى، ولدهشتي كان التأثير أقوى وأفدح، ربما لأن النفس تعبت وشاخت وكبرت، ولم تعد تتحمل عثرات القلب، وربما لأن تكرار القصة في تفاصيلها استدعى بقوة ذكريات سيئة مضاعفة، وربما لأنني توهمت أن لديَّ عامًا أو عدة شهور لإغلاق ملف قصة حبيبة، أستعد فيها للابتعاد تدريجيًّا، مثل انسحاب جيش ضخم شيئًا فشيئًا، وعلى فترة زمنية طويلة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وبأقل الخسائر الممكنة.

لكن النهاية جاءت أسرع مما توقعت، ومعها جاء الألم الأشد، والآن يتحمس عدة أصدقاء لكي أكتب عن التجربة، هو أمر لم يحدث لي في أي كتاب من الكتب، ولكن هذا ما حدث فعلًا.

فوجئت بك تتحدث عن مشروع رواية يمكن نشرها، استلهامًا لما نشرت من بوستات على فيسبوك، ما زلت أتذكر أيضًا صديقًا آخر استمع إليَّ بصبر وطول بال وأنا أحكي له عن تفاصيل الحكاية، كان متأثرًا ومشدودًا من البداية حتى النهاية، يناقش ويعلق ويجادل، وفي النهاية قال كلمة واحدة كررها في كل مناسبة هي: «اكتب».

بدت لي الفضفضة بالكتابة أمرًا مقبولًا بشكل عام، ولكن كيف السبيل إليها والجرح مفتوح؟ كيف السبيل إليها وهي مجرد مادة لا شكل لها، والمطلوب أن تتحول إلى فن؟ كيف يمكن الكتابة عن الحب وفي كل فيلم وكتاب ولوحة وأغنية حكايات حب لا تنتهي؟ كيف يمكن أن أكتب شيئًا مختلفًا حتى لو كنت أصب نبيذًا قديمًا في آنية براقة؟

كيف يمكن أن أكتب بحرارة وقوة وقسوة التجربة، ثم أصنع معها مسافة للتأمل والتشكيل بل الجدل أيضًا؟

أقسم لك يا كمال، إن النص كتب بالشكل الذي ظهر به، باستثناء بعض التعديلات والإضافات البسيطة، وحتى الآن لا أعرف كيف حدث ذلك! لم أرد حتى أن أغير اسم بطل الرواية (نديم)، صرت بطلًا لفني مثلما كنت بطلًا لواقعي، إن شئت أن تغير اسم البطل فلا بأس، ولكني فعلًا أحب أن أكون بطلًا صريحًا لروايتي عمن أحببت، وأن أمتلك الواقع والخيال معًا، هل أستطيع؟

أعترف بأن نيتي أصلًا لم تكن الكتابة، ولذلك قلت لك بعد لقائي معك:

ـ لن أكتب شيئًا الآن، وكل ما أعدك به، إذا كتبت، أن يكون النص لك.

مجرد كلام عام لا أعد فيه بشيء، لأنني بكل بساطة كنت فارغ العقل والذهن والذاكرة، وليس في قلبي سوى وجع عميق متصل، جعلني مؤرقًا في النوم، وأمارس عملي بشكل أقرب إلى «الروبوت»!

لم أكن أعرف أنني أمتلئ يومًا بعد يوم بالحكاية، وأنها ستقودني ذات ليلة للكتابة، والغريب أنني بدأت من العنوان، ولم أكن محدِّدًا اسمًا معينًا، ولكن كتبته فجأة بكل تلقائية على اسم بطلة الحكاية «حبيبة»، بما يوحي أيضًا أنني أكتب عن حبيبة ما، ما يعني يُمنى أيضًا.

فيما بعد بدا كما لو أن أحدًا يملي عليَّ ما أكتب، وأنني أحاول أن أسيطر على الكتابة فلا أقدر، إلى درجة أن كثيرًا من الفصول كتبت بحروف متداخلة، بل سقطت من الكلمات حروف كثيرة، وكأنني أسجل كلامًا بسرعة، خوفًا من نسيانه.

بدا أيضًا، وبالتدريج، كما لو أن التجربة تفرض شكلها، وسرعان ما انطلقت في السرد، متخليًا عن فكرة خطرت منذ استلهام جزء من كتاب «طوق الحمامة»، بأن يحتذي النص طريقة سرد ابن حزم الأندلسي.

وبدون أي تعمد، سرعان ما وجدت صوتًا يرد على صوت السارد، هو صوت عقله، هذه هي اللحظة التي رأيت فيها مشروع بناء، تمسكت بها بقوة، وهي اللحظة نفسها التي قلت فيها لصديقي إنني قد «عفقت» النص، أي أنني لم أرَ فحسب، وكأنها لحظة إشراق صوفية، حدود وحجم المادة، وإنما رأيت أيضًا الشكل الكامن فيها.

وهكذا تواصلت الكتابة بشكل محموم، حتى انتهت، ولم أدرك أنني نقلت حيرتي في كتابة النص إلى داخل النص نفسه، إلا عند النهاية، فصارت الحكاية عن قصتَي حب تعودان بالسارد المؤلف إلى النقطة نفسها، ولكن حكاية حبيبة هي الأساس، واستدعاء قصة يُمنى لمجرد ارتباطها أيضًا بالنهاية نفسها، وقد بدت قصة يُمنى عندي كمشكلة فنية، ولكن تشابهها مع قصة حبيبة في تفاصيل كثيرة حل لي هذه المشكلة، أما حوار العقل مع الكاتب فقد خلق صراعًا إضافيًّا، وانتهى إلى المصالحة، لأن العقل صار مفتونًا بسحر الحب، وأصبح يعذر العشاق، وسوف نكتشف أصلًا أن العقل كان يستفز الكاتب ليكتب، ولم يكن جادًّا في لومه.

منذ البداية كانت لديَّ فكرة أن أحكي الحكاية أيضًا من وجهة نظر حبيبة و«بيترو»، وربما «كيوبيد»، منتهيًا إلى أن كل طرف كان على صواب، فقصص الحب بالذات تعرض عادة من وجهة نظر صاحبها فقط، فماذا لو كان هناك فيلم يعرض ثلاث وجهات نظر في وقت واحد لثلاثة أشخاص: المحبوبة، ومن أحبته، ومن أحبها؟ هنا لن تستطيع أن تدين أحدًا.

هذه الفكرة كُثفت وبُلورت في مختتم الرواية، وأضفت للنهاية «كيوبيد» الذي يعترض على طريقة السرد من الأساس، في رأيه أن الحكاية يجب أن تروى من زاويته، لأنه السيناريست الأكبر، كل سيناريو يوجد سيناريو فوقه أقوى وأكبر تأثيرًا.

ما أدهشني أن الكتابة الحرة خدمت الرواية، لأنها ترجمت الحيرة والالتباس، وهما شعور كل من يخرج من تجارب عاطفية كهذه، وترجمت أيضًا صراعي الداخلي، وهاجسي الكبير، لأنني لم أكن أريدها رواية رومانتيكية فحسب، وإنما رواية تتأمل أيضًا الحب نفسه، وقد تبينت الآن فقط أنني ما كنت أستطيع أن أكمل سرد الرواية، لو حافظت على ضمير المتكلم الذي بدأت به، لأنه ضمير حميم يجسم الألم، وما إن تحولت تلقائيًّا إلى ضمير الغائب، أو ضمير المخاطب على لسان العقل، حتى خف الألم كثيرًا، كما أن تفكك الذات إلى ثلاثة ضمائر كان تعبيرًا مدهشًا لم أقصده عن تفكك الذات، وتكسرها إلى شظايا، هو حرفيًّا ما كنت أشعر به وقتها.

صارت الرواية، وقد قادتها طاقة عارمة تريد أن تخرج وتعبر، مزيجًا غريبًا بين المونولوج والأصوات المتعددة، حيث يتم كل شيء في الواقع داخل السارد، هو الذي يحكي كل التفاصيل،

ويبدأ متشككًا في العقل وفي الكلام والحروف، ثم يتصالح في النهاية مع الجميع، أو مع بعضه إذا جاز التعبير، حيث نكتشف بسهولة أن صوته انقسم إلى عدة أصوات وضمائر، وإلى عقل وعاطفة.

أما صراع الواقع والفن فقد حُسم منذ البداية، فالواقع يجب أن يمتثل بلا شفقة ولا رحمة ولا تردد لتشكيل الفن، ولذلك، فإنه على الرغم من أن الخطوط العامة لكل من يُمنى وحبيبة ظلت في مجملها مستلهمة من الواقع، لحرصي على تقديمهما كشخصيات تستحق أن تكتب، إلا أنهما في الوقت ذاته صارتا شخصيتَين فنيتَين تمامًا، أو هكذا أعتقد، تخضعان لقانون السرد، وظِّفت كل التفاصيل في سبيل فنية السرد، لا حقيقة الواقع.

هي حكايتي، ولكنها لم تعد حكايتي، فالكتابة لا تجعل أي شيء كما حدث أبدًا، ولا الفن أيضًا.

أعرف يا صديقي أنك ستناقشني في كل فصل، وقد تهدم كل الفصول، كما فعلت معي في كتاب سابق، وأعلم أن رسالتي إليك قد لا تقنعك على الإطلاق، ولكني أقدم لك «قطعة فنية من حياتي»، لا أعرف نصيبها من النجاح، ولا حظها من رضاك، فلتغفر لي إطالتي وشرحي، ولكني أتمنى أيضًا ألا تُحملني ضريبة التجربة الواقعية المؤلمة وتجربة الفن الصعبة معًا.

من ناحية أخرى، لا أعرف كيف يمكن أن تستقبل يُمنى وحبيبة الكتاب بعد قراءته، أنا فخور بمعرفتهما، لم أفز منهما بحب، ولكني فزت بعمل فني أعتز كثيرًا به!

يبقى أن أخبرك أنني بعد الكتابة لم أعد أشاطر شخصية نديم اعتقادها بأن كتابة جيدة عن حب فاشل، لا تساوي أبدًا حبًّا ناجحًا لن تكتب عنه حرفًا واحدًا.

لا شيء يعوض الحب يا صديقي، هذا صحيح.

ولكن الكتابة والفن ساحران ومراوغان وغير مفهومين أيضًا مثل الحب، ويستحقان المعاناة مثله.

ربما لأنهما يجعلان حكايات الحب أطول عمرًا، ولو على الورق.

هامش أخير

أرسل إليَّ نديم قدري، صديق العمر الأعز، قبل موته الصادم والمفاجئ، مُسوَّدة رواية بعنوان «حبيبة»، وصورة من خطاب ورقي غرامي قديم، ونسخة إلكترونية من خطابه إلى الناشر.

تعوَّد أن يحتفظ عندي بكل ما كتب طوال حياته، وأنا أيضًا مراجع كل أعماله ومحررها.

لم أغيِّر حرفًا، حتى اسمه كبطل للرواية تركته كما هو، ولكني أضفت فقط ما تركه لديَّ مرتبطًا بالنص، وكذلك بعض العناوين والهوامش، فصارت «حبيبة، كما حكاها نديم».

كان دومًا مريضًا بقلبه، فليرقد قلبه مع روحه في سلام.

شكر وعرفان

إلى سيف سلماوي، لمحبته الغامرة، ولدعمه المستمر.

إلى إيهاب الملاح، لآرائه الثاقبة، ولحماسه الدائم والملهم.

إلى شريف بكر، للتشجيع العظيم، ولأفكار مهمة ومثمرة.